أبو الحسن علي الحسني الندوي



بين صنعاء وعمان

مجموع محاضرات ألقيت في صنعاء و عمان
في مناسبات مختلفة ، و احتفالات كبيرة

ملتزم النشر و التوزيع
المجمع الاسلامي العلمي (ندوة العلماء)
لكهنؤ (الهند)

من مطبوعات المجمع الاسلامى العلمى

رقم ـ ١٨١

١٤٠٤هـ

١٩٨٤م

طبع فى

مطبعة ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

تقديم بقلم الأستاذ واضح رشيد الحسنى الندوى

الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله صلى الله عليه و آله و صحبه و سلم .

أما بعد ! فان هذه المجموعة التى بين يدى القراء تشتمل على أحاديث سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، التى ألقاها فى الأردن و اليمن اللذين زارهما فى رجب و شعبان ١٤٠٤ ه .

قام سماحته فى أواخر شهر رجب ١٤٠٤ ه بزيارة المملكة الأردنية الهاشمية بناء على دعوة وجهت إليه من مؤسسة آل البيت لحضور مؤتمرها السنوى الثالث لبحوث الحضارة الاسلامية الذى إنعقد بين ٢٥ ـ ٢٩ أبريل ١٩٨٤م فى عمان .

و قد كانت هذه الزيارة فرصة للقاء شخصيات مرموقـة في العالم الاسلامى فى مجالات العلم و التربية الدينية و الفكر و السياسة خلال جلسات المؤتمر و خارجها و لتبادل وجهات النظر مع عدد من أقطاب الفكر و السياسة و الدعوة ، و خاصة لأن جلسات المؤتمر قد عقدت تحت رعاية شخصية لصاحب السمو الملكى الأمير حسن بن طلال ولى عهد المملكة الأردنية الهاشمية و الذى أولى المؤتمر عنايته الخاصة ، و اشترك شخصياً فى مداولاته و مناقشاته ، و منح أعضاء المؤتمر فرصة لتبادل الآراء و بحث مسائل تخص بمواضيع مختلفة تتصل بالحضارة الاسلاميـة و القدس الشريف ، فكان المؤتمر ملتقى إسلامياً يضم مدارس الفكر و العمل المختلفة النشيطة فى معظم أنحاء العالم الاسلامى و فرصة للتعرف على مسار العمل و طبيعة التحديات و المشاكل فى الوطن الاسلامى .

و برزت فى مناقشات المؤتمر مشاكل حاسمة تعانى منها الأمة الاسلامية و جرت مناقشات لها ، أعرب فيها العلماء و الباحثون عن وجهات نظرهم من جوانب مختلفة ، كما برزت مشكلة القدس التى خصص لها يوم كامل للبحث و المناقشـة فى ٢٧ / رجب ، يوم الاسراء والمعراج ، وعرض صاحب السموالملكى الأمير حسن بن طلال بنفسه المسألة بجوانبها المختلفة ،وشرح خلفياتها والتحديات

الناشئة من الاحتلال من استمرار العدوان و عمليات الاستيطان فى الأراضى المقدسة و قدم إحصائيات دقيقة عن المسألة بمساعدة خرائط أعدت خصيصاً لهذا الغرض.

و لموقع الأردن الخاص و قربه من القدس الشريف وتحمل الشعب الأردنى مسئولية خاصة ازاء القدس الشريف ، و لانعقاد المؤتمر فى الأيام التى حدث فيها ذلك الحدث التاريخى العظيم الذى كان فيه اتصال الأرض بالسماء عن طريق الاسراء و المعراج ، و تحمل هذه الأمة الاسلامية إمامة الأمم عن طريق إمامة سيد المرسلين محمد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم للانبياء و الرسل فى ذلك اليوم التاريخى الحاسم ، و للوضع الذى تعيش فيه هذه الأمة التى رشحت لقيادة الأمم ، و تورطها و ارتباكها فى مشاكل و تحديات تهدد وجودها اليوم ، ثارت الشجون ، وفاضت طبيعة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى مستلهماً من هذه العناصر الفياضة والواقع المؤلم المرير ، فتحدث فى المؤتمر و فى الاجتماعات الأخرى التى عقدت بهذه المناسبة فى الزرقاء و أربد وعمان بكلمات كانت حديث القلب الجريح ، تثير الهمم و تحى القلوب من غفوتها فحركت هذه الكلمات أوتار القلوب ، لأنها كانت تفيض من قلب اجتمع فيه شجى المكان و الزمان و الاعتزاز بالماضى المجيد

و التألم بالواقع المرير .

وكان لكلمة الشيخ فى قاعة البتراء بفندق ايجنسى بالاس أثناء مناقشة مشكلة القدس فى ٢٧ من رجب ١٤٠٤ ﻫ دوى كبير ، فكم من عيون دمعت ، وقلوب غمرها الشجى عند ما قال سماحته : « إن المسألة ليست مسألة الاحصائيات ، فان الاحصائيات تتغير ، إن المسألة الحقيقية هى وجود الرجل المختار ، الرجل الذى يملك عزيمة و إيماناً ، و اعتزازاً بالدين ، و إرادة لتغيير الوضع مهما كان مدعما بالحقائق و الاحصائيات ، رجل كصلاح الدين الأيوبى » .

و كاد أن يصبح ذلك موضوع كلماته فى سائر المناسبات فى لقاءاته الخاصة مع المسئولين ، و فى كلماته فى الاجتماعات العامة و الندوات ، وقد عد سماحة الشيخ الندوى السباق إلى تقليد المدنية الغربية أكبر خطر فى سبيل بناء تلك الشخصية المرتقبة ، وخاصة فى الأردن ، لأنه بلد مرابط ، فان من حق طبيعة الظروف أن يكون هذا البلد مرابطاً فى الواقع ، فأكد ضرورة العودة إلى حالة الرباط الدائم فى وجه الخطر الداهم و إعداد النفوس ، و أنذر بأخطار حياة البطر و الترف و التنعم التى تكتسح العالم اليوم .

تحدث سماحة الشيخ الندوى فى قاعات المؤتمر و فى المساجد الكبرى بعمان ، وفى جامع الزرقاء الكبير حيث كان استقبال الشباب

لكلته و تهـافتهم على لقائه منظراً خلاباً يدل على الحب الغامر فى شباب الزرقاء و حماسهم الدينى ، و على أن كلمة الحق لهـا أكبر أثر فى القلوب كأنهم وجدوا ضالتهم المنشودة .

و فى جامعة اليرموك بأربد تحدث سماحته أمام حشد كبير فى القاعـة الرياضية استلهم فى كلمتـه من ذلك الموقع الذى له دور تاريخى ، فاستخرج معانى كلمته من معركة اليرموك الحاسمة ، وبحث العناصر الحقيقية التى غلب بها المسلمون رغم قلة عددهم و ضعفهم ، و ضخامة عدد العدو و تحصنه الشديد ، فتغيرت هنا الاحصائيات ، و تحقق النصر للسلمين ضد الحقائق و الاحصائيات العددية .

استغرقت زيارة الشيخ الندوى للأردن حوالى ٨ أيام ، و لـكنها كانت حافلة بالزيارات واللقاءات مع العلماء والدعاة و مع الرسميين ، يبلغ فيها رسالته و ينقل حـديث قلبه ، و كانت الكلمة الأخيرة فى كلية العلوم العربية لعمان غرة شعبان (١٤٠٤هـ) ، وكانت هذه الكلمة بعد زيارة كهف أهل الـكهف على جبل الرقيم فتجددت فى الذهن قصة « فتية آمنوا بربهم فزدناهم هدى » ، فكان حديثه فى كلية العلوم العربية عن المعركة بين الايمان و المادية ، و كيف واجه المسلمون الحضارات بايمانهم ، و سيقرأ القراء هذه الأحاديث القلبية فى هذه المجموعة ، وهى تدور حول رسالة الاسراء والمعراج

و موقف المسلمين إزاء الحضارة و هى أحاديث يصح أن توصف بفيض ذكرى الاسراء و المعراج .

أما الجزء الثانى من هذه المجموعة فهو من نفحات اليمن وهى أحاديث ألقاها سماحته فى اليمن الذى زاره بناء على دعوة اتحاد الطلاب والهيئة العليا للجامع العلمية ، و مركز التوجيه والارشاد باليمن .

و اليمن له أهمية و قيمة خاصة لدى صاحب هذه الأحاديث :

أولا : لقول رسول الله ﷺ لدى وصول الوفد اليمانى : « جاءكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة و ألين قلوباً ، الايمان يمان و الحكمة يمانية » .

ثانياً : لأن اليمن هو الوطن الثانى له ، فان نسبه العلمى فى الأدب العربى و الحديث الشريف يتصل بعلماء اليمن الذين يدين لهم فى تربيته و ثقافته و عربيته ، و قد تأخرت زيارة اليمن لأسباب لا يعلمها إلا الله رغم هذه الصلة وهذا الود و الحنان ، و رغم هذه الدعوات المتكررة من المراكز العلمية و الدعوية فى اليمن ، و قد تسلم سماحته دعوة خاصة فى عام ١٩٧٦م ، و تمت إجراءات السفر لكنها أرجئت لأسباب طارئة ، فمنذ ذلك الوقت كانت زيارة اليمن قرضاً و تأخر تأدية واجب الشكر .

و جاءت زيارة اليمن خلال العودة من الأردن على إصرار

الاخوان اليمانيين فمن بلد الاسراء والمعراج وبلاد اليرموك و مو تة إلى البلاد التى شهد النبى ﷺ لأهلها برقة القلوب، ونسب الايمان إليهم ، و البلاد التى كان الشوق إلى زيارتها كالشوق إلى الوطن ، و قديماً قال الشاعر :

لابد من صنعاء و إن طال السفر

و فى اليمن أكرم الزائر اكرام العائد إلى الوطن ، كان البلد كله كان فى شوق إلى القادم الذى كان رغم بعد الدار معروفاً مألوفاً بمؤلفاته التى انتشرت فى اليمن ، وأدرجت فى مناهج الدراسة ، فكان الأطفال و الشباب يعرفون هذه الشخصية ، فلما أفصح الشيخ الندوى عن صلة قرابته باليمن وشوقه إلى زيارته الذى كان يضمره فى قلبه و ولائه لأساتذته اليمانيين ، وأثار فى اليمانيين غيرتهم الدينية و ارتباطهم بالايمان لشهادة النبى ﷺ : الايمان يمان ، فكأنه كسب ود أهل اليمن و سخر قلوبهم .

كان النزول بفندق دار الحمد السياحى ، و هو أحد قصور الأمراء السابقين، وقد أختير ذلك المكان لقربه من المراكز و الدور العلمية و التربوية و الرسمية ، و لتكون الصلة مع مختلف طبقات الشعب ميسرة ، وبدأت الزيارات و فى مقدمتها زيارة العلماء والدعاة من أهل اليمن للتعرف على ظروف الدعوة وطبيعة العمل للتربية

الاسلامية ونوع التعاون مع الجهات المسئولة لها ، و قد أبدى أحد العلماء الدعاة حكمته اليمانية وفقهه اليمانى بقوله : إن أحسن طريق للدعوة فى رأيه هو التركيز على وصول الايمان إلى الحكام وتبنيهم لقضية الاسلام ، بدل التركيز على وصول جماعة مؤمنة إلى كراسى الحكم ، ولعل هذا هو المنهج اليمانى ، و بهذا التعبير الرائع اكتشف إنسجام عجيب بين المنهج اليمنى ومنهج علماء الهند على طول طريق الدعوة فى تاريخ الهند الطويل ، و فى مقدمتهم الامام أحمد السرهندى الذى غير الوضع بهذا المنهج السليم ، و أحدث إنقلابا سلميا طوعيا ، و كانت تجربتـــه تجربة ناجحة ، و فى تاريخ الدعوة الاسلامية فى الهند عدة أمثلة لهذا المجهود فى حياة الامام ولى الله الدهلوى و أسرته العلمية ، فاختـار علماء الهند منهج النصح للحكام وتوجيههم إلى طريق الايمان وعدم منافستهم، فحدث فى تاريخ الهند ذلك اللقـاء القريب بين رجال الدعوة و التربيـــة و بين رجال السياسة و السلطة .

أما تجربة ايصال المؤمنين إلى الحكم فهى مليئة بالأخطـار والمعاكسات، وقد جرب هذا الطريق فى كثير من بلدان العالم الاسلامى ، لـكنه أصيب بنكسات وأتى بنتائج معكوسة .

اختار صاحب الأحاديث اليمنية فى حديثه ولقاءاته ذلك المنهج

الذى كان يلائم طبيعته ، و تربيته الدينية ، و أثار فى الشعب اليمنى المسلم غيرته الدينية وأعاد إلى ذاكرته ارتباطه بالايمان ، واستعاد خدمات الأنصار من مؤازرة الدين ونصرته ، وما تم فى أرض اليمن من خدمة للحديث الشريف و اللغة العربية و ما تدين له الهند فى الدعوة و العلم ، و خاطب العلماء و قادة الشعب وحكامه و رجال الجيش فى الطيران و المدرعات ، و أقام اتصالات شخصية برجال الحكم و التوجيه و التنفيذ و التربية ، و كان تركيزه على هذه النقطة ، الايمان يمان ، و الحكمة يمانية ، فليكن اليمن إيمانياً .

كانت أحاديث الشيخ الندوى فى صنعاء فى كلية الطيران ، وفى جامعة صنعاء التى أكتظت قاعتها الفسيحة بالمستمعين ، و افترش المستمعون الذين لم يجدوا مكاناً فى القاعة ساحات القاعة وملحقاتها ، و فى جامع مشهد الكبير و فى لواء المدرعات ، و فى تعز تحدث فى جامع المظفر الكبير ، وفى الحديدة فى معهد النور ، و فى جميع كلماته استعاد دور اليمن الذى مثله فى خدمة لاسلام علمياً و فكرياً وإيماناً و تصديقاً ، و الذى استعاد به اليمن مجده وتاريخه بعد أن اندثرت حضارته وخضع للحكم الأجنبى الغاشم .

وقوبلت كلمات الشيخ الندوى فى سائر الأوساط كأنها كانت فى الضمير فوجدت التعبير ، وقد أشار سماحته فى كلمته التى ألقاها

فى جامعة صنعاء أن فى اليمن شلالا لا يستغل ، فاستشرف الناس رؤوسهم متسائلين فقال ذلك هو شلال الايمان ، أن شلالات صغيرة تولد الكهرباء وتحرك عجلات المصانع و تكسب للبلاد ثروة ، ففى كندا شلال نياجرا تولد منه الطاقة التى تحرك الحياة فى كندا ، أما شلال الايمان فانه يحيى القلوب ويحرك الأمم ، ويقوم به اتصال الأرض بالسماء ، أليس من الظلم أن يهمل هذا المصدر الكبير لتوليد الطاقة ، الطاقة التى تغير مصير الانسان و تحول مجرى التاريخ .

و كان للشلال دوى وصدى فى الأوساط العلمية و السياسية و الشعبية ، فكأن هذا التعبير أخذ مكانه فى القلوب ، فكأنه كان فى الضمير فوجد التعبير .

و قد اعتمد صاحب هذه المحاضرات — حفظه الله — فى سرد النصوص و الأحاديث النبوية و تفسير الآيات القرآنية ، على ذاكرته فى هذه المحاضرات التى كان يرتجلها ، فلما نقلت هذه المحاضرات من الأشرطة و تصفحها سماحته ، راجع المصادر و نقلها بنصوصها التى وردت ، و ضم إليها بعض الأحاديث المروية عن النبى ﷺ و الحكايات التى وردت فى كتب الحديث و السيرة النبوية ، و أقوال كبار المفسرين فى تفسير الآيات ، و فصل ما أجمل و شرح بعض ما أبهم ، إتماماً للفائدة و زيادة فى قيمة هذه

المحاضرات ، و ترسيخ معانيها و مراميها فى النفوس .

و كان للكاتب شرف مرافقة سماحة الشيخ الندوى فى هذه الرحلة التاريخية ، فكل ما تحدث به عن المعانى والانطباعات والتحركات إنما هو حديث مشارك وشاهد ، وخبر عيان لاخبر بيان ، والشاهد يرى مالا يراه الغائب ، ولا يليق بى أن أطيل الكلام ، و أن أقف فى وجه الشلال الايمانى ، فاليكم أيها القراء الأحبة النفحات الايمانية المنبعثه من شلال الايمان فى صنعاء وعمان .

واضح رشيد الندى

أستاذ جامعة دار العلوم ندوة العلماء لكنئو (الهند)

و رئيس تحرير « صحيفة الرائد »

١١ / من رمضان ١٤٠٤هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

شلال الإيمان و الإخلاص
وكيف يستفاد منه؟

[محاضرة ألقيت بجامعة صنعاء فى ١٤/من
شعبان ١٤٠٤هـ (١٥ / مايو ١٩٨٤م) أمام جمع
حاشد من الطلبة و المثقفين من أهل العاصمة لليمن
الشمالى ، و قد غصت القاعة بالحاضرين و امتلأت
الساحة الخارجية بالمستمعين] .

بعد الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله :

سادتى و إخوانى ! لقد تقدمت الصناعة و المخترعات تقدماً
كبيراً ، و اخترعت الأشياء التى لم تكن تخطر بالبال ، و لكن
لم تخترع إلى الآن آلة تكشف عن مدى السرور ، و موجة الفرح
التى تغمر القلب ، و ليس من الممكن أن يضع الانسان قلبه أمام
الاخوة حتى يعرفوا ما يجيش فى القلب ، ولكن بالله الثقة ثم بحبكم
و بعاطفتكم الاسلامية فى أن تقيسوا و تعلموا مدى سرورى لرؤية

هذه المجموعة الطيبــة من الشباب المسلم فهم الجيل المرتقب و أمل الاسلام و المسلمين فى هذه البلاد .

إخوانى ! كلكم تعرفون الشلال الذى ينبع من الأرض، يتدفق بقوة ، وينزل بقوة على الأرض ، و هنالك شلالات تتدفق وتنزل منذ آلاف من السنين ولكنها لم تستخدم فى صالح الانسانية و صالح المدنية ، و منها ما هو مجهول و منها ما هو مهمل ، أنى زرت « كنادا » و زرت « تورنتو » مدينــة كنادا التى يقع فيها (Niagara Fall) يعنى « شلال نياجرة » ، فرأيت العجب ، رأيت هذا الشلال الذى يعتبر من عجائب العالم السبعة ، ينزل من ارتفاع كبير (١) لا يقاس حتى يراه الانسان ، وهو ينزل على الأرض منذ آلاف من السنين بقوة عجيبة ، و لكن البلاد التى وضع الله فيها هذا الشلال قد وفقت لتستخدم هذا الشلال الطبيعى فى صالح الانسانيــة و فى صالح المدنيــة ، فتأخذ منــه القوة الكهربائية (٢)، التى تستطيع أن تنير هذه البلاد وتملأها حرارة

(١) ينزل هــذا الشلال من ارتفاع ١٠٨ متر ، و ارتفاع الماء ٥٤ متر .

(٢) و يهيأ منه خمسة ملاثين من القدرة الحصانية (Horse Power) .

ودفئاً ، وهنالك طاقات جبارة وثروات هائلة لم ينتفع بها الانسان بعد فى كثير من البلدان ، فهى ضائعة مهجورة مظلومة .

ولكنى أريد أن أحدثكم عن شلال لا يقاس به هذا الشلال الكنيدى فى القوة والتأثير ، والفائدة التى تعود على الانسانية ، ذلك هو شلال الايمان والاخلاص والحماس ، الذى أكرم الله به الأمة الاسلامية بصفة عامة ، و أكرم به بلادكم بصفة خاصة ، وشهد بهذا الاختصاص لسان النبوة الذى كان مجرى الوحى ، لقد شهد بهذا الشلال الايمانى الذى أكرم الله به القطر اليمانى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى النبي العربى ﷺ بقوله لما جاء وفد من اليمن : « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة ، وألين قلوبا ، الايمان يمان و الحكمة يمانية (١) » .

إن الدول الكبيرة و البلاد الراقية المتحضرة التى تقود الآن ركب الانسانية بجدارة أو من غير جدارة ، و بحق أو من غير حق ، والتى تزعمت الحضارة ومصائر الأجيال البشرية ، عندها

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه ، كتاب المغازى باب « قدوم الأشعريين و أهل اليمن ، و فى رواية أخرى للبخارى « و الفقه يمان و الحكمة يمانية (الجامع الصحيح للبخارى ج / ٢) .

كل شئ ، ولكنها لا تملك هذا الشلال الايمانى، أنها تجردت ـ على مدى التاريخ ـ من الاخلاص لله تبارك و تعالى ، و من التسامى على المصالح الفردية و الجماعية والحزبية ، و السياسية المحدودة ، أنها و إن بلغت قمة الرقى والحضارة ، وتملك الشئ الكثير من أسباب الرفاهية و مظاهر المدنية ، و الطاقات العلمية و الفكرية ، و لكنها لا تملك هذا التدفق الايمانى و عمقه و أصالته التى يملكها الشعب الاسلامى المؤمن ، ولا تملك سلامة القلوب وصفاء الصدور والحب البرىء البعيد عن الأغراض و الفوائد ، والشوق إلى الجنة والحنين إلى الشهادة ، والايمان و الاحتساب ، ورجاء الثواب على الأعمال الحسنة ، إن المعسكرين الغربى والشرقى يفترقان فى أشياء كثيرة ، و لكنهما يلتقيان على أن زعماءهما و أقطابهما لا يملكون السيطرة على القلوب و الحب و الاحترام فى النفوس ، و الولاء الصادق ، البعيد عن الاعتبارات السياسية و المصالح الفردية و الجماعية ، و الدوافع الدينية النابعة من أعماق القلب لفعل الخير .

أنا تكلمت على غلوة سهم من البيت الأبيض (White House) فى واشنطن فى أمريكا و كنت أتمنى أن يصل صوتى إلى البيت الأبيض و إلى صاحبه قلت :

« أيها السادة ! إن لكم مساهمة فعالة كبيرة القيمة للنهوض

بالشعوب الشرقية ، ولكنى أقول لكم أن هذه الشعوب التى تنفقون عليها ملائيين الملائيين لا تحبكم ، أنها لا تتمنى لكم السعادة ، أنهـا تتمنى لكم كل عثرة وتتربص بكم الدوائر وتشمت بكل ما يصيبكم من أحداث وتشفى نفسها بذلك ، أنها تنعم فى ظل مساعداتكم ، ولكنها لا تحفظ لكم هذه اليد و لا تعترف بالجميل ، لأنها تصدر عن غير إخلاص ، إنهـا مساومات سياسية و اقتصادية و تجارية ، فهـذه الشعوب تأكل من رفدكم و تتطفل على مائدتكم ، ولـكنها لا تضمر لكم الاخلاص والحب ، لماذا ؟ لأن عطاءكم الحضارى وما تغمرون به هذه الشعوب من روافد ومن مساعدات لا تصدر عن إخلاص ، لا تصدر عن أعماق القلب ، أنها كلها مساومات و مبادلات تجارية » .

إن الايمان و الحب العميق الذى يضمره الشعب المسلم للقادة المؤمنين الصالحين لا يوجد له مثيل أبداً ، لا فى المعسكر الغربى ولا فى المعسكر الشرقى ، فهنا نفاق و سياسة فقط ، إن هذه البلاد فقيرة مفلسة فى هذا الايمان مفلسة فى هذا الحب ، مفلسة فى هذا الحماس ، إن هنالك أنشطة الدعايات و الصحافة و وسائل الاعلام و الجامعات و المؤسسات ، كل ذلك قد ربط هـذه الشعوب برباط صناعى لا ثقة به ، إذا استطاعت أن تكسر هذه الأغلال

فانها فى أول فرصة تكسرها . وتقرأون أخبار الثورات والمؤامرات و المحاولات لقلب الأوضاع كل يوم ، و لكن رباط الايمان الذى كان يربط الأمة الاسلامية برسولها الأعظم ﷺ ، ثم بالخلفاء الراشدين ، ثم بالقادة المصلحين ، ثم بالعلماء الربانيين ، ثم بالزعماء المخلصين ، هذا الرباط القوى الأمين الوفى العميق المحكم لا يوجد له نظير ، و صدق الله العظيم : « هو الذى أيدك بنصره و بالمؤمنين و ألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم و لكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم (١) » .

و لكنى أقول لكم و الحزن يملؤ قلبى ، إن هذا الشلال الايمانى الذى أكرم الله به أرض الجزيرة ، أكرم الله به أرض الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، أرض أنصار الرسول ﷺ ، وأرض دعاة الاسلام و حملة مشعله فى العالم ، أن هذا الشلال من الايمان و الاحتساب ، و رجاء الأجر و الثواب ، و الشوق إلى الجنة و الحنين إلى الشهادة والحب لله و لرسوله و للمؤمنين ، لم يستخدم بعد و لم يقتبس منه هذا التيار المضئ المنير ، القوى المفيد ، هذا التيار كان يستطيع أن يملأ العالم كله نوراً و بهاءاً ، و يحل كل مشكلة ، و يتغلب على كل معضلة . و يربط القلوب بعضها ببعض

(١) الأنفال ـ ٦٣ .

و الشعوب بعضها ببعض ، و المجتمعات بعضها ببعض ، و يزيل كل مشاكل الانسانية و لكنه شلال مظلوم ، أنه ضائع من قرون .

إن من المؤسف و المحزن أن كثيراً من قادتنا إلى الآن ما عرفوا مدى قوة هذا الايمان ، مدى قوة هذا الرباط ، مدى قوة العقيدة الاسلامية ، لم يعرفوا إلى الآن هذه القوة الكامنة فى النفوس التى وضعها الله عن طريق الرسالات السماوية ، و النبوات الصادقة وجهود المخلصين فى قلوب المؤمنين إلى الآن ، ما عرفوا قيمة هذه الطاقة البشرية الهائلة أن الطاقة النووية لا تساوى الطاقة التى يحملها قلب المؤمن ، هذه الطاقة التى ولدت عالماً جديداً ، و أرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً ، أنها جعلت الأشياء التى كان لا يتخيلها الانسان حقائق واقعية .

مع الأسف الشديد أن قادة الفكر و الرأى فى كثير من البلاد الاسلامية لم يكتشفوا بعد هذه الطاقة ، بل إنهم مع الأسف الشديد يرون فى هذه الطاقة أكبر خطر عليهم ، فهم فى حرب معها ، و إنهم يعتبرون هـذه البقايا الايمانية التى لا تزال تحملها الأمة الاسلامية رواسب تاريخية ، وقد يسمونها أنقاضاً تاريخية وخرائب يجب نقلها وإزالتها ، فأكبر مجهودهم ، وأكبر ذكائهم بل وعبقريتهم تصرف إلى نقل هذه « الأنقاض » و إلى الآن لم ينجحوا فى ذلك

بل باءت مساعيهم بالفشل و الاخفاق ، لأنهم يعارضون طبيعة الأمة ، ويغالطون نفوسهم فى الحقائق ، و يريدون أن يقضوا على مجهودات قرون ، أنهم فى جهاد فى غير عدو ، لأنهم يرون فى الايمان الذى لا يزال الشعب المسلم فى بلادهم يحمله و يتصف به ، الخطر الداهم و العدو المنافس لهم ، مأساة لا أقول مأساة إيمانية فقط ، بل هى مأساة عالمية إنسانية أن لا يستفاد بهذه الطاقة .

والله إن شعوبنا المسلمة الوادعة السليمة التى تؤمن بالله ورسوله و تؤمن بأن الآخرة خير من الأولى ، و التى تؤمن بأن العاقبة للمتقين ، و التى تؤمن بأن النصر للمؤمنين ، و التى تؤمن بأن هذه الدنيا فانية عاجلة ، و التى لا تزال ترى فى ما وعد الله به عباده المؤمنين من نعماء الجنة وفضل الشهادة فى سبيله ما لا تراه الشعوب الراقية فى لذات هذه الدنيا ، وتترنح أعطافها و تخفق قلوبها مما يتلى عليها من القرآن ، و يذكر لها من مبشرات الرسول و مواعيده ، فتنسى نفسها و تهب حياتها لله ولرسوله ، إن هذه الشعوب تتصف بصفات من الرجولة والبطولة و المروءة و الفضيلة و السمو الخلق تتجرد عنها غالب الشعوب المتحضرة الآن ، إذا رزقت هذه الشعوب قائداً مخلصاً وفياً يعرف قيمة هذه الطاقة ، قيمة هذا الايمان الذى لا تعطيه إلا النبوات ، لا تعطيه إلا التربية الربانية

لا يعطيه إلا الاخلاص ، إن هـــذا الايمان لو كان عشر معشاره عند الأمم الأوربية لجعلت العالم غير العالم ، و لكنها دائماً تنتقل من مشكلة إلى مشكلة ، إنها تنقش الشوكة بالشوكة و ضلعها معها (كما يقول سيدنا على بن أبى طالب) ، فتنكسر هذه الشوكة التى استخدمت لازالة هذه الشوكة ، و تجتمع شوكة بشوكة ، هذه قصة الحضارة الغربية لا تحل مشكلة إلا و تواجه عشر مشكلات ، لأنها تحرم ذلك الايمان و تلك الثقة التى يربط قلب الانسان بالانسان ، إننى لا أعرف عالماً بعلم النفس ، و بفلسفة الأخلاق تصور ماقاله القرآن ، قال : « فلو لا إذ سمعتموه ظن المومنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً و قالوا هـــذا إفك مبين (١) » ، هـذا غاية ما يتصوره الانسان ، يعنى « المسلم مرآة المسلم » فاذا سمع مسلم عن أخيه المسلم شيئاً يستعرض نفسه أولا و يقول أنا لا أستطيع أن أعمله ، أنا أربأ بنفسى و بايمانى عن هذه السفالة فكيف يصدر ذلك عن أخى المسلم ؟ و يبادر و يقول أنا لا أصدق أن أخى المسلم فعل هذا ، أى مجتمع فى التاريخ قام على هـــذا التصور الرفيع السامى لأعضاء المجتمع الانسانى ؟ .

إن قادة الغرب و الشرق يريدون أن يملؤا فراغ الاخلاص

(١) النور — ١٢ .

بالقوة العسكرية و بالمخابرات و بالجاسوسية، فلا يثق إنسان بانسان فى روسيا ، ولا يثق أخ بأخ ، ولا زوج بزوجته ، و لا زوجة بزوج ، قد فقد المجتمع الشيوعى الثقة بالأفراد ، الثقة بأقرب الناس إليهم حتى الجدران لا يأمنونها ، لعل لها آذاناً أو سماعات ، ولعل هنـــالك مسجلات ، لا يستطيع الانسان أن يتكلم فى زاوية من زوايا بيته بسره مثلا أو ينفس عن ضميره الـكئيب ، فمن القصص الطريفة أن كلباً جاء من مثل هذه النواحى فقدم له الكلاب بنو جنسه ما عندهم من أنواع الطعام، فاذا هو غير مقبل على أكل هذا يعافه و يزهد فيه ، فقالوا لماذا لا تأكل و أنت ضيفنـا ؟ ، قال ما لى حاجة فى طعامكم إنى أريد أن أنبح ، قد كنت فى بلد لا أستطيع أن أنبح فيه ، فأنا جئت هنا لأنبح ، و هو شئ فطرى عنـدى ، فالطعام لا شأن لى به ، و لـكنى أريد أن أسلى ضميرى و أرضى طبيعتى .

يا إخوانى ! اعرفوا نفوسكم قبل أن تعرفوا نفوس غيركم ، اعرفوا ما أكرمكم الله به من ثروات إيمانية ، ومن خصائص كريمة يمانية ، إذا عرفتم نفوسكم فقـد عثرتم على الـكنز الدفين ، و على شلال قوى ، أقوى شلال فى العالم ، هـــذا الشلال الايمانى الذى تستطيعون ، و يستطيع الذين منحهم الله فرص الاستفادة من هذه

البلاد الغنية ، يستطيعون أن يقتبسوا منه التيـــار الكهربائى الذى يستطيع أن ينير ما حولكم من بلاد الله وينير العالم كله ، لقد كان سلفكم هم الذين أناروا العالم لأنهم قد اقتبسوا و أخذوا هذا التيار الكهربائى من صدورهم المليئة بالايمان وحملوه إلى أقصى الشرق، إلى الهند ، جاءنا علماء ربانيون منكم فقهاء ومحدثون و مربون و أنقذوا الشعب المسلم الهندى من مستنقع الوثنية ، من عبادة البقر و الشجر و النهر ، هؤلاء كانوا آباءكم الغر الميامين و نحن لا نزال متطفلين على مائدتكم ، و لكن اعرفوا نفوسكم أيها الاخوان وليعرف قادة البلاد الاسلامية فى باكستان و فى بنغلاديش و فى البلاد العربية ، بصفة خاصة، ليعرف قادة هذه البلاد ماذا يملكونه فى هذه الشعوب ماذا يملكونه فى بلادهم ، هم دائماً ينظرون إلى الخارج ، ليقتبسوا ثمرات الحضارة الغربية ، و العلوم التطبيقية الميكانيكية ، آلات يستوردونها من الغرب ، ولكن هذه الآلات لا تغير مصير الانسانية ، ولكن الايمان الذى تحملونه فى قلوبكم يستطيع أن يغير مسيرة الانسانية ، ومن المحزن أن تنسلخ قرون بعد قرون وأن تأتى أجيال بعد أجيال وهذا الشلال الايمانى لا يستخدم فى صالح البشرية وفى صالح هذه البلاد ، إن العالم فى حاجة اليوم إلى هؤلاء المؤمنين الذين يتدفق الايمـــان من صدورهم و يفيض على لسانهم ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ،

هؤلاء المؤمنين الذين يتجردون عن الأنانيات ، يتجردون عن القوميات ، يتجردون عن الوطنيات يتجردون عن الشهوات ويخدمون الانسانية و ينقذونها من جديد .

إخوانى ! إن لسان النبوة لما وصفكم بالايمان والفقه والحكمة ، فانه لا يكون شيئاً موقتاً ، لأنه إذا جرى وصف أو شهادة على لسان حكيم ، أو مؤرخ أو بصير أو طبيب ، يكون مقصوراً على ذلك الفرد أو الجيل ، ويكون محدوداً فى ذلك الزمان ، ولكنها كلمة النبى الخالد ، النبى العالمى الانسانى ، الذى ختمت به الرسالات و أكملت به الأديان و الشرائع ، إذا قال : « الايمان يمان » ، فيجب أن يكون الايمان يمانياً فى كل عصر ، و أنتم بدوركم تغارون على هذه الشهادة و الكرامة وتحاولون أن ذلك لا يكون مختصاً بزمان دون زمان ، هذه شهادة لكم قائمة مسجلة فى التاريخ حفظها الحديث النبوى الصحيح ، فيجب عليكم أن تعتزوا بهذه الشهادة .

إن كثيراً من الشعوب الاسلامية مستعدة للساومة و للمبادلة معكم ، اعطوها هذه الشهادة الايمانية ، الشهادة بالايمان والفقه و الحكمة و خذوا منها ما شئتم ، و أنا أقول بلسان مسلمى الهند على الأقل ، أقول خذوا منا ما شئتم من مكتبات ومن مدارس و من علوم و من ثروات و أعطونا هذه الكرامة التى

أكرمكم الله بها : « الايمان يمان و الفقه يمـان و الحكمة يمانية » ، والله أن كبار الأولياء من هذه الشعوب العجمية مستعدون ليتفاهموا معكم فتعطونهم ، ولكن من المؤسف المحزن أن أكبر جزء من الطاقات البشرية تنفق فى إزالة الأنقاض المتخيلة المفروضة .

يا جماعة ! إنها ليست أنقاضا ، إنها أسس صالحة لبناء الانسانية من جديد ولبناء الخلق الكريم و المجتمع الصالح ، إنهـا اعلام فى فى متاهات الانسانية ، إنها ليست أنقاضاً ليست خرائب قد فقدت قيمتها المعمارية ، فقدت قيمتها الصناعيـــة ، لا ، و لكن كثير من زعمائنا يتخيلون ما يعتز به المسلمون فى بلادهم من عقيدة و إيمان و أخلاق و مبادئ ، ركامات قد فقدت قيمتها و انقضى دورها ، أنهم يعتقدون أن الاسلام بطارية قد نفدت شحنتها ، كثير من هؤلاء يقولون أن الاسلام قـــد قام بدور عظيم حين كان الانسان بدائياً حين كان الانسان فى سن المراهقة الفكرية ، ولكن الآن تقدم العالم وتقدمت العلوم ، وتقدمت المدنية ، فلا حاجة إليه ، لا يا إخوانى ! إن هذا الايمان يستطيع أن ينقذ أمريكا ، يستطيع أن ينقذ روسيا ، يستطيع أن ينقذ الهند البرهمية ، يستطيع أن ينقذ اليـابان ، يستطيع أن ينقذ العالم كله ، ولكن الذنب علينا ، الذنب على الذين إلى الآن لم يقيسوا هذا الايمان و هذه القوة بمقياس صحيح ولم يزنوا بالميزان

الصحيح الأمين، ليس هذا الايمان مجرد كلمة، لا هذا الايمان يستطيع أن يصنع عجائب كما صنع عجائب من قبل، ويحل كل مشكلات الانسانية، لأن كل مشكلات الانسانية نبعت عن عبادة النفس و الشهوات، نبعت عن الأنانية، نبعت عن النظر القاصر المحدود، نبعت عن الحزبية، نبعت عن شهوة الرئاسة، والايمان يستطيع أن أن يتغلب على كل هذا، ويصنع من الأمة أمة جديدة و من البلاد بلاداً جديدة، و من العهد التاريخى عهداً تاريخياً جديداً، و لكن أين الذين هم يستطيعون أن يستخدموه فى صالح بلادهم و فى صالح الانسانية ؟

هذا هو الفراغ الأكبر الموجود الآن فى المجتمع الاسلامى، كل شئ مهيأ، وكل شئ موجود، ولكن لا نجد أحداً يستخدمه، فأنتم يا أهل اليمن، أيها الاخوة ! أنتم تستطيعون أن تفيضوا على العالم الاسلامى إيماناً جديداً، العالم الانسانى الآن يلهث ويلهث، ويقول كما سيقول أهل جهنم : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، و اذكروا قول الله : « و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها (١) ».

---

(١) آل عمران آية ـ ١٠٣ .

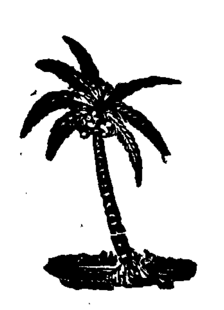
أنتم أبناء الأنصار و أبناء أبناء الأنصار ، الذين قال رسول الله ﷺ عنهم : « لو سلك الناس شعباً و وادياً وسلك الأنصار شعباً و وادياً لسلكت شعب الأنصار و واديها ، ولو لا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، والناس شعار والأنصار دثار ، اللهم ارحم الأنصار و أبناء الأنصار و أبناء أبناء الأنصار (١) » ، أين هذه الشهادات الفريدة ، وأين هذه الكرامات المجيدة لأمة من الأمم ، خصكم الله و رسوله عليه الصلاة و السلام بهذه الشهادات الخالدة و بهذه الكرامات المطوقة المشرفة ، فعليكم أن تشكروا هذه النعمة الجليلة التى تكادون تنفردون بها ، ولكن المعول على الشئ الذى أشاد به الرسول عليه الصلاة و السلام لا على الموارد و لا على التقدم ، ولا على الحضارة ، المعول على الايمان ، المعول على الفقه ، المعول على الحكمة .

يا شباب الجامعة ! أنتم تستطيعون أن يكون دوركم أكبر وأسعد على الانسانية من دور كولمبس الذى اكتشف العالم الجديد ، قارة أمريكا من غير إرادة ، إذا اكتشفتم العالم الجديد فى أمتكم و بلادكم و فى أرجاء العالم الاسلامى و انتفعتم بهذا الايمان الذى

(١) زاد المعاد .

أكرم الله به الأمة الاسلامية و استخدمتموه فى صالح الانسانية و العالم الانسانى المحتضر ، هذا الايمان الذى لا يخلقه إلا النبوة ، و لا يخلقه إلا إرادة الله تبارك و تعالى .

هذه كلمتى لكم وأنا مغتبط مسرور ، فالله يعلم مدى سرورى برؤية هذه المجموعة الغضة الطرية ، الصافية النقية ، الايمانية اليمانية ، أقول لكم أخرجوا الى عالم جديد ، اكتشفوا عالماً جديداً ، و لا تقنعوا بالميسور الموجود ، أبحثوا عن الكنوز الدفينة ، و الثروات المطمورة فى أرض القلوب المؤمنة .



المسلمون في رباط دائم

[محاضرة ألقيت فى جامع المظفر (تعز) فى ١٥ / من شعبان ١٤٠٤هـ (١٦ / من مايو ١٩٨٤م) بعد صلاة المغرب فى جمع حاشد فيه كبار العلماء و أعيان البلد] .

سادتى وإخوانى ! قد قدر الله لى تجولا فى صفحات التاريخ ، و تجولا فى البلاد الاسلامية ، و هكذا وفقى الله تبارك و تعالى لأن أجمع بين الجولتين جولة فى التاريخ عن طريق الدراسة والمطالعة ، و جولة فى الأرض الاسلامية بالرحلات العديدة و الزيارات المتكررة ، فلى حق فى أن أتحدث إليكم بشئ من تجاربى وانطباعاتى و أن أقدم إليكم بعض ملاحظاتى و توصياتى ، و قديماً قالت العرب « الرائد لا يكذب أهله » فان لم أكن شيئاً فانى رائدكم ، أنا رائد العالم الاسلامى كله على أساس العقيدة والايمان ، والحمد لله ،

و رائد العالم العربي لأنى ألتق معه و أتصل به عن طريق النسب و اللغة و الثقافة ، و أقل واجب على الرائد أن لا يخفى شيئاً من الحقائق عن الذين وضعوا فيه ثقتهم ، و قلدوه هـــذه الأمانة و هذه المسئولية .

أيها الاخوة الكرام ! إنى أبدأ حديثى هذا بكلمة سجلها التاريخ ، كلمة حكيمة بليغة على مدى الأعصار و الأمصار ، و على مدار التاريخ ، كلمة قالها الصحابى الجليل و الفاتح العظيم عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه ، فاتح مصر ، إنه لما شرفه الله باخضاع مصر ، و بالأصح إدخالها ، فى حظيرة الاسلام و نقلها إلى ظل الاسلام الوارف ، إنه لما استطاع أن يفتح هذه البلاد التى استعصت على كثير من الفاتحين ، ولها تاريخ طويل فى تقدم المدنية والحضارة والعلوم وقامت على أرضها حكومات من أقوى الحكومات ، وملكها ملوك خلد القرآن بالذكر منهم فرعون ، لما فتح سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه ، و معه من الصحابة رضى الله تعالى عنهم عدد كبير و من تبعهم من المسلمين ، كان له كل الحق فى أن يطمئن إلى الوضع السياسى و إلى الوضع الاستراتيجى و إلى الوضع الجغرافى ، لما دانت له مصر بأرضها وخصبها و غلاتها وخيراتها حتى و ثقافتها وحضارتها و لغتها ، تعلمون جميعاً أن مصر من البلاد السعيدة التى

قبلت اللغة العربية كلغتها ، والخط العربى والحضارة العربية الاسلامية ، و كانت كل القرائن وكل الشهادات تدل على أن مصر ستظل جزءاً من أجزاء الامبراطورية الاسلامية ، و كان لا شئ يهدد بالخطر ويشكك فى مصير مصر ، فلو كان أحد مكانه من الفاتحين الكبار الذين حدث عنهم التاريخ ، لأثنى على جيشه و شهد له بالفروسية و العبقرية ، هنأه على هذا الفتح العظيم وطمأنه إلى آخر الدهر ، وقال له كونوا على ثقة بأن مصر قد دانت لنا وخضعت ولا خطر و لا خوف ، أنعموا فى ظلالها و اشربوا من ماء النيل ، وسيحوا فى الأرض كما شئتم و ابنوا فيها قصوراً مشيدة ، و اسكنوا فيها كأبناء البلاد ، و سادة البلاد و حكامها .

و لكنكم تعلمون ماذا قال هذا الفاتح العظيم الذى شرفه الله بصحبة النبى الرسول الأعظم ﷺ ، و ألهمه الحكمة و الفراسة المؤمنة الصادقة التى حدث عنها الرسول ﷺ فقال : « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » ، ماذا قال سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه ؟ قال : « إنكم فى رباط دائم لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم » ، إنه قال لهم لا تخلدوا إلى الراحة و لا تضعوا السلاح و لا تعتبروا نفوسكم قد نفضتم غبار الغزو ، فلكم الآن كل حق فى أن تعيشوا عيشة الفاتحين الحكام ، لا ، إنكم فى رباط دائم ، أنتم محاطون بالأعداء كاللسان فى الأسنان ، أنتم

حفنة بشرية و نقطة مغمورة فى هذا البحر الطامى من الأجناس و الديانات و الحضارات فى قارة أفريقيا التى تكاد تكون عالماً بمفرده . فلا مساغ لكم فى أن تخلدوا إلى الراحة و أن تناموا نوم الفاتحين على أسرة الملوك الباذخين .

هذه وصية وصى بها سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه، يجب أن يحفظها المسلمون و يجعلوها نبراساً لهم و دستوراً لهم فى الحياة ، إن محنة الشعوب الفاتحة و الأسر الحاكمة ، أنها تبدأ حياتها بالتقشف و الفروسية و المغامرات و تنتهى بها — فى فترة قد تطول أحياناً وتقصر أحياناً — إلى حياة النعومة والفسولة (١) ، و فاكهة وشراب و عزف وقصف ، كما قال الشاعر العظيم الدكتور محمد إقبال : « أنا أحكى لك قصة الفتوح و قصة الحكومات و رجالها فى لفظ وجيز ، أنهم يبدأون بالسيف و السلاح وينتهون إلى المزمار و الغناء ، تلك بدايتهم و هذه نهايتهم » ، هذه قصة جميع الحكومات التى قامت على أكتاف هؤلاء الشبان المتقشفين الزهاد المغامرين بالنفس و النفيس ، و إلى أى شئ انتهت هذه

---

(١) فسل فسلا و فسالة و فسولة كان فسلا أى ضعيفاً لا مروءة له و لا جلد .

الحكومات ؟ انتهت هذه الحكومات إلى ملوك مرفهين باذخين ، قد استحوذ عليهم الشيطان و استهوتهم المادة و الشهوات ، و جن جنونهم و تفننوا فى الألعاب و الأغانى و فى المطاعم و المشارب ، و أبعدوا النجعة ، إن القائد الحكيم سيدنا عمرو بن العاص نصح العرب الفاتحين لمصر بأن لا يشتغلوا بالدواب الفارهة و القصور الباذخة و المطاعم اللذيذة الخيالية ، كأنه قال لهم : لا تعيشوا عيشة « ألف ليلة و ليلة » عيشوا عيشة جد وصرامة ، عيشة فروسية و رباط ، عيشة مجاهدين مناضلين ،

اقرأوا يا إخوانى ! تاريخ الحكومة المغولية فى الهند التى كانت أكبر الامبراطوريات فى القرن العاشر الهجرى على وجه الأرض ، وكانت تلى الدولة العثمانية فقط ، كانت بداية هذا الأمر من « ظهير الدين بابر » ، وكان من الشدة و القوة أنه كان يحمل رجلا على كتفه اليمنى و رجلا على كتفه اليسرى ويمشى على السور العالى ، بعد ذلك لما انتقلت الحكومة إلى ابنه نصير الدين « همايون » استمر على شئ من الفروسية مع شئ من تنعم الملوك ، ثم انتقلت الحكومة إلى نجله « جلال الدين أكبر » فكان كذلك وكان يقود الجيوش الجرارة ، ثم انتقلت إلى ابنه « نور الدين جهانكير » فتنعم

ورق أكثر، حتى وصل الأمر بعد الامبراطور شاهجهان الذى بنى « التاج محل » فى آكره إلى ابنه الملك الصالح السلطان محى الدين أورنك زيب عالمكير، وكان فارساً عصامياً وقائداً محنكاً وزاهداً اعتبره بعض المؤرخين سادس الخلفاء الراشدين، ثم دب الوهن فى هذه الأسرة، فكانوا مثالا فى الترف و البذخ و حكاياتهم تشبه الخيال فلا يصدق الانسان أن الانسان يبلغ إلى هذا التفنن الخيالى و إلى هذا الغرام بالملاذ و الأغانى ؟ فخسروا الدولة وضيعوا الملك.

و أنتم يا إخوانى العرب ! تعيشون فى قطعة من الأرض تتجه إليها الأنظار لأسباب لا أستطيع أن أشرحها الآن و يعرفها المتبصرون الدارسون، أنتم تعيشون فى قطعة قد ركز الأعداء كل جهودهم و كل ذكائهم و كل مخططاتهم على إزالتها عن رسالتها وعن شخصيتها الاسلامية العربية، و عن قيادتها للعالم الاسلامى، هذه مؤامرة من أخطر المؤامرات التى عرفت فى التاريخ، إن الشعوب على الرغم مما عندها من نظريات مختلفة قد تكون متناقضة، تلتقى على نقطة واحدة و هى القضاء على مكانة الجزيرة العربية و قطع صلتها عن الاسلام، هذا أقوله لكم كرائد لا يكذب أهله، كرجل زار أوربا و أمريكا، و اطلع على كتب المستشرقين و هو متتبع

لما يقال و ينشر و يكتب هنالك ، ثم أقول لكم فى ضوء معلوماتى وفى ضوء مشاهداتى ، إنه ليس العالم الخارجى والشعوب والحكومات البعيدة عن هـذه الجزيرة هى التى تشكل الخطر على كيان هذا الجزء من الجزيرة العربية و شخصيته ، بل إنكم محـاطون بدعوات مناهضة للاسلام ومعسكرات تقوم على فلسفات تتناقض مع الاسلام و مع مقومات شخصيتكم و جوهر رسالتكم و مركزكم فى العـالم ، فأنتم لا يسوغ لكم أبداً ، أن تخلدوا إلى الراحة وأن تعيشوا عيشة المنعمين المترفين ، أقول لكم بصراحة ، الترف هو العامل الأكبر لهدم الحكومات و انقراض المدنيات و سقوط المجتمعات وهو الذى ذمه القرآن فيقول : « و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيهـا ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً (١) » و « المترفون » كلمة قرآنية تتكرر وتتردد فى القرآن وهو يقول : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتهـا فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين (٢) » ، الترف والبطر من أقوى العوامل الحضارية و النفسية و الخلقية التى قد قضت على الحكومات المسنة

---

(١) سورة بنى إسرائيل آية - ١٦ .

(٢) سورة القصص آية — ٥٨ .

الطويلة و على المدنيـات المزدهرة بالزوال ، فلابد أن ترجعوا إلى حياة البساطة و شئ من التقشف ، لا أقول لكم عيشوا عيشة البدو و الأعراب الأولين و كلوا لحوم الابل و اشربوا ألبـان الابل ، ولا تتمتعوا بشئ مما أنعم الله به عليكم، لا ، أنا لا أدعو إلى الرهبانية فلا رهبانية فى الاسلام ، وأنا لا أدعوا إلى تقشف غير طبيعى ، ولكن إلى شئ من التقشف إلى شئ من البساطة ، تحرروا من عاداتكم التى لا تتصورون الحياة و اللذة بغيرها ، إننى لا أسمى هـذه العادات وهذه الهوايات ولا أحددها فأقلل من قيمة حـديثى المبدئى العام ، إنما أتركه إلى ذكائكم و معرفتكم بالمجتمع و ارتبـاط قلوبكم به ، لاتستأسركم هذه العادات والهوايات والأعراف والتقاليد حتى تتحكم فيكم و تستعبدكم. أن الأمم التى تقوم بدور بناء إيجابى وبدور يذكر فى التاريخ لا تكـون أسيرة لعاداتها ، و لا تكون مترفة مترفهة إلى آخر الحدود، وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو أبو الأمة و مربيها ، كان يقول للمسلمين ، « تمعددوا و اخشوشنوا و اخلولقوا و انزوا على ظهور الخيل نزواً » يجب عليكم أن تحمدو الله على نعمه الكثيرة وتشكروها وتقدروها قدرها ، ولكن لا تلينوا الحياة و لا ترققوها إلى حد لا يمكنكم أن تواجهوا فيه

أى محنة وأى شدة ، إنه يا إخوانى ليس عصر « ألف ليلة وليلة » ، ليس عصر الأغانى ، الذى ألفه أبو الفرج الأصفهانى ، ولا عصراً خيالياً ، إنما هو عصر صراع الطاقات الكبيرة و المعسكرات العظيمة المقررة للمصير ، أنتم بين فكى الأسد ، أنتم بين طبقتى الرحى ، لسان بين الأسنان ، و أنتم لابد لكم أن تحسبوا لهذا الزمان ولهذا المكان و لهذه الأحوال و لهذا الوضع القاسى و لهذا الواقع المر حسابه .

هذا الذى أريد أن أقول لكم ، كان فى إمكانى و الحمد لله أن أزيد ثقة إلى ثقتكم و أن ترجعوا من هنا مرتاحين فرحين تقولون بشرنا فضيلة الشيخ بشرنا بكذا وكذا ، وحكى لنا حكايات مثيرة ، حكايات شائقة ، لا ، هذا ليس من الأمانة ، إن الاكرام الذى لقيته منكم يملى على أن أكون صريحاً ، و قد قال رسول الله ﷺ قبل قرون و قرون « ويل للعرب من شر قد اقترب » فكيف بهذا الزمان الزى هو عصر المحن و الفتن ، و عصر العداء للإسلام و عصر المادية الرعناء و الردة الفكرية و العقائدية ، أنتم هنا حملة أمانة كبيرة و ورثة جيل عظيم ورثة العلماء الربانيين والأولياء الصالحين ، ورثة الحكام العادلين إلى قرون عديدة ، فيجب لكم أن

تسهروا على هذه الأمانة و أن تحسبوا لها كل حساب ، و أن تنظروا إلى الواقع المحيط بكم تستعرضوا الوضع السياسى ، الوضع المدنى ، الوضع الدعوى الذى تعيشونه ، و يعيشه اليمن و تعيشه الجزيرة العربية كلها ، و إنى أهنئكم بأن الله اختار لكم هذه الأرض الطيبة فاحمدوا نعمة الله و اشكروا الله تبارك و تعالى على هذه النعمة ، و لكن كونوا أكفاء هذه الوراثة ، أكفاء هذه الأمانة ، أكفاء هذه المسئولية .



معجزة الإسلام الخالدة

كلمة ألقيت فى معهد النور فى الحـديدة ميناء البحر الأحمر فى اجتماع عام عقد فى الساحة الفسيحة للمعهد بعد نشيد الأطفال فى الترحيب و تعريف الأستاذ عبد الله إبراهيم مدير المعهد بمحاضر الليلة وقصيدة له، وذلك فى ١٦/من شعبان ١٤٠٤هـ-١٧/٥/١٩٨٤م.

سادتى و إخوانى : حضرتنى و أنا جالس معكم آية قرآنية و هى قوله تعالى : « لقـد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون (١) » ، فسر كثير من المفسرين هذه الآية بالشرف (٢) ،

---

(١) سورة الأنبياء — ١٠ .

(٢) جاء فى تفسير روح المعانى للآلوسى أن فيه ما يوجب الشرف لكم لأنه بلسانكم و منزل على نبى منكم ، تتشرفون بشرفه و تشتهرون بشهرته ، لأنكم حملته و المرجع فى حل معاقده ، ج / ١٧ ، ص / ١٤ — ١٥ .

يقول الله تعالى مخاطبـاً للعرب الأولين الذين نزل القرآن بلغتهم ، و قد خاطبهم القرآن قبل أن يخاطب غيرهم فقـال لقد أنزلنا أيهـا العرب المسلمون كتاباً فيه شرفكم يعنى هذا الكتاب الذى يخلد ذكركم فى الدنيا ، ويحفظ تاريخكم الجليل ، ويقيم للغتكم المحدودة فى الجزيرة العربية دولة عالمية من أوسع الدول و أقواها ، دولة لا تقوم على القوة و الارغام ، بل على الحب و الطوعية و العقيدة والايمان ، من أوسع دول اللغات و رقاعها التى عرفت فى تاريخ الثقـافات و اللغات ، و يفرض دراستها و التوسع و الدقة فيهـا — لأجل هذا القرآن العربى المبين — على أبناء العجم الذين يعتزون بلغـاتهم و آدابهم ، هذا الكتاب الجليل الذى نزل بلغة الجزيرة العربية على لسان النبي العربى الأمى ، مطلع صبح صادق فى ليل دامس غاسق ، ومولد تاريخ جديد للأمة العربية التى مضت عليها قرون وأحقاب ، فلولا هذا القرآن و لولا هذه النبوة الأخيرة العالمية التى آثر الله لها الجزيرة العربية ، كانت الأمة العربية — و لا تؤاخذونى أيهـا الاخوان — مطمورة مغمورة فى أنقاض التـاريخ ، و كانت فى مؤخر الركب الانسانى ، تعانى الفراغ العقلى و العلمى و العزلة و الانطواء .

هل كان العرب — تصوروا أيها الاخوان ! — ولو عاشوا

مآت السنين ، يستطيعون أن ينشروا لغتهم العربيـــة فى العالم من أقصاه إلى أقصاه ، حتى يأتى رجل ولد فى الهند — و الهنـد بلد له لغات و ثقافات ومدنية خاصة — ويدرس اللغة العربية ويجيدها ثم يأتى إلى زبيد بلدكم و يأخذ من علمائها و أئمة اللغة و الحديث فيها (١) ، و يشتهر بالزبيدى حتى تغلب هـــذه النسبة على نسبته الوطنيـة و يصبح الـكثير من الدارسين و المثقفين لا يعرفون أنه من الهند ومن الولاية الشمالية التى انتمى إليها ، هل تعرفون من هو ؟ هو العلامة السيد مرتضى بن محمد الحسينى الزبيدى (١١٤٥هـ-١٢٠٥هـ) يتناول القاموس المحيط من أشهر المعاجم العربيـة للامام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى م٨١٧هـ (وهو دفين بزبيد) بالشرح ، ويؤلف «تاج العروس» فى عشر مجلدات كوامل (٢) فى أربعة عشر عاماً و شهرين ، و لا أعرف فى لغة من اللغـات التى لى مشاركة فيها أو إلمام بها ، أن معجماً اعتنى به هذا الاعتناء و شرح هذا

(١) من أخصهم العلامة السيد أحمد بن محمد مقبول الأهـــدل و من فى طبقته .

(٢) وقد ظهر الـكتاب فى عشرين جزءاً من الـكويت بتحقيق عبد الـكريم الغرباوى حديثاً (الحسنى) .

الشرح المستفيض ، وجمعت فيه هذه الثروة اللغوية الهائلة ، والتدقيق الذى اتسم به هذا الشرح الكبير ، و يعتبر هـذا الكتاب حجة ويبلغ من القبول و الشهرة حتى يتنافس فيه المتنافسون من أفاضل العلماء ، وكبار الملوك والأمراء ، فاستكتب منه ملك الروم نسخة ، و سلطان دارفور نسخة ، و ملك المغرب نسخـة ، و طلب منه أمير اللواء محمد بيك أبو الذهب نسخة ، و جعلها فى خزانة كتب مسجده التى أنشأه بالقرب من الأزهر و بذل فى تحصيله ألف ريال (١) .

و كذلك ما الذى جاء بالامام مجد الدين الفيروزآبادى ، الذى ذكرته آنفاً ، صاحب « القاموس المحيط » و صاحب « سفر السعادة » ومن كبار القضاة والمؤلفين ، من بلده فيروزآباد فى إيران إلى مدينة زبيد فى اليمن ، يؤثره بالاقامة و يقضى فيـه آخر أيام حياته و يلقى حمامه و يدفن فى أرضه ، هل شئ غير رابطة الدين و رابطة اللغة العربية و مكانة زبيد الدينية و العلمية ؟.

و إلى هذه النقطة لفت النظر و أنا أحاضر فى جامعة جنيف

---

(١) يراجع للتفصيل كتاب « نزهة الخواطر » للعلامة عبد الحى الحسنى ، المجلد السابع ترجمة العلامة السيد مرتضى الزبيدى .

بسويسرا فى اللغة العربية، فى حفلة عقدت بمناسبة مولد الرسول ﷺ، و تساءلت وفى الاحتفال عدد من كبار الأساتذة والمثقفين، أليس من معجزات القرآن والاسلام أن هندياً يحاضر فى اللغة العربية فى عاصمة أوربية، تصوروا أيهـا الاخوان العرب !! كيف انتشرت هذه اللغة و طبقت الآفاق حتى فاق فيهـا غير العرب، لقد كانت الجزيرة العربية رغم سعتها منطوية على نفسها منعزلة عن العالم، كان فيها شعراء و خطباء و لـكن لم ينبغ فيها شاعر و لا أديب عرفت مكانته فى الخارج، وتوفر كبار الأذكياء ونوابغ العلماء على دراسة شعره و شرحه، و لـكن لما من الله على الجزيرة العربية بالبعثـة المحمدية، انطلق الاسلام و فتح القلوب و سخر العقول، وخرجت اللغة العربية من نطاقها الضيق — و إن كان واسعاً — إلى خارج الجزيرة و نبغ فيها باحثون و علماء و محققون.

و فى إحدى زياراتى (١) سألت العلامة عبد العزيز الميمنى الراجكوتى صـاحب « سمط اللآلى » و « أبو العلاء و ما إليـه »، وأحد أعضاء لجنة تصحيح « لسان العرب لابن منظور » كم تحفظ من شعر العرب؟ فوقف ثوانى ثم قال بين خمسة و سبعين ألف ومأة

---

(١) كان ذلك فى يوليو سنة ١٩٧٨م فى كراتشى باكستان.

ألف من الأبيات ، ولم يكن فى ذلك مبالغاً ومجازفاً بالقول يعرف ذلك تلاميذه و الذين عرفوه (١) ، فهل يوجد مثال لذلك فى أى لغة من لغات العالم يدرسها أجنبى فيحفظ منها هذا العدد الكبير من أبياتهـا ؟ .

و نزول القرآن باللغة العربية سر بقاء اللغة العربية وانتشارها كما قرره الكاتب المسيحى جرجى زيدان، وقاله كثير من الباحثين .

قبل قرن كان الانجليز يحكمون الهند ، و كان أبناء شبه القارة الهندية يتظرفون و يتنبلون بدراسة اللغة الانجليزية و المهارة فيهـا ، بها يكتبون ويخطبون ، وفيها يؤلفون ويدرسون ، ولكن لما خرج الانجليز من الهند بدأ الناس يكرهون اللغة الانجليزية و يعتبرونهـا رمزاً للاستعمار ، و بدأت حركة محو الخط الانجليزى و الحروف الانجليزية من الألواح واللافتات، وقد حكم المغول الهند مدة ثلاثة قرون وكانت لغتهم القومية التركية ولكن اندرست هذه اللغة وجهلت بعد انقراض الحكم المغولى، وهكذا فقدت اللغة الفارسية التى كانت لغة الديوان الشئ الكثير من أهميتها والعناية بها ، ولكن المسلمين فى شبه القارة لا يزالون متمسكين باللغة العربية محتفظين بها ، لهم مدارس تعلم اللغة العربية و العلوم الدينية تعد بالآلاف لأنها لغة القرآن

(١) توفى فى نوفمبر ١٩٧٨م .

و مفتاح كنوز السنة ، و مدخل المكتبة الاسلامية العربية ولغة نبيهم و صحابته .

يوصى كبار علماء الهند ، وقادة الاصلاح و التجديد فى هذه القارة بالعناية باللغة العربية ، والاعتزاز بها ، والحرص على معرفتها و دراستها : يقول شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى المعروف بالشيخ ولى الله الدهلوى المتوفى ١١٧٦ه فى رسالته التى أسماها : « المقالة الوضيئة فى النصيحة و الوصية » .

« نحن رجال غرباء ، هاجر آباؤنا إلى الهند ، و إن عربية النسب و عربية اللسان مفخرتان لنا ، و هى التى تقربنا إلى سيد الأولين و الآخرين و أفضل الأنبياء و المرسلين ، و مفخرة الوجود ﷺ ... السعيد منا من حصلت له مشاركة فى لسان العرب والصرف والنحو ، وكتب الأدب واطلع على الحديث و القرآن ، و لابد لنا من حضور الحرمين الشريفين و تعلق القلب بهما ، وفى ذلك سر سعادتنا ، و الشقى من أعرض عنهما (١) .

أين رابطة الشعوب و البلاد بلغات حكامهم و مستعمريهم أو باللغات التى لا يتصلون بها إلا عن طريق السياسة أو الثقافة

---

(١) المقالة الوضيئة فى النصيحة والوصية ، طبع دهلى ١٢٦٧ه .

أو الاقتصاد ، من هذه الرابطة التى تقوم على العقيدة و الايمان و الحب و الغرام، ولا تستطيعون أيها الاخوان أن تقدروا مدى حب أهل الهند من المسلمين و مسلمى أنحاء العالم الاسلامى الأخرى لكم ، وتقديرهم لدوركم فى التاريخ ، ومدى احترامهم للغتكم وثقافتكم إنه هو الحب الخالص الذى يقول الله تعالى عنه : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، و لكن الله ألف بينهم إنه هو العزيز الحكيم (١) .

و لذلك لما سمح بالأذان باللغة العربية فى تركيا — و كان ذلك ممنوعاً فى عهد أتاترك — خرج الأتراك من بيوتهم و بدأوا يرقصون فرحاً ، و ذبحت مآت من النعاج شكراً وسروراً بأن الله مد فى حياتهم حتى أدركوا هذا اليوم السعيد ، و سمعوا الأذان العربى فى لغة نبيهم التى كان يؤذن فيها بلال و أبو محذورة و ابن أم مكتوم ، و الذى كان يدوى على منائر مساجدهم قبل أن يصدر هذا الحكم القاسى السفيه .

هذا هو الرباط الذى يربط الشعوب بكم و هو الذى تضمره

---

(١) آل عمران ـ ٦٣ .

قلوب غير العرب لكم و هو نابع عن شعور واحد ، وهو الشعور
بعظم نعمة الاسلام وضخامتها التى جاءتهم عن طريقكم ، إنهم ينظرون
إليكم كحامل رسالة الاسلام و ناقل التعاليم الاسلاميـة ، ينظرون
إليكم كالمنقذ من الضلال ، وكالمخرج من الظلمات ، ذلك الذى رفعكم
أيها العرب إلى مستوى القيـادة العالمية ، فهل تتخلون عن هـــذه
المنزلة الرفيعة وتنزلون إلى مستوى القوميات والعصبيات ، والنظريات
الضيقة ، و القوانين التى تغير صباح و مساء ؟ .

نذكركم يا أبناء اليمن و يا أبناء الأنصار ! ما سجله الحديث
الصحيح من حوار دار بين رسول الله ﷺ و الأنصـــار ، حين
تقاول بعض شبابهم فى أن الرسول آثر بأكبر الغنائم رجال قريش
من المؤلفة قلوبهم ، فجمعهم رسول الله ﷺ فى حظيرة وقال لهم :

« يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموهـا
فى أنفسكم ؟ ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بى وعالة فأغناكم الله بى ،
وأعداء فألف الله بين قلوبكم ، قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل ،
ثم قال ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول
الله ، لله و رسوله المن و الفضل ، قال أما و الله لو شئتم لقلتم
فلصدقتم و تصدقتكم ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ، و مخذولا فنصرناك ،
وطريداً فآويناك ، وعائلا فواسيناك ، أوجدتم على يا معشر الأنصار

فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً ليسلموا ، و وكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء و البعير و ترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ ، فو الذى نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، و لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، و لو سلك الناس شعباً و وادياً و سلكت الأنصار شعباً و وادياً لسلكت شعب الأنصار و واديها .

الأنصار شعار والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » ، قال فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم ، وقالوا رضينا برسول الله ﷺ قسماً و حظاً » .

و الزمان قد استدار كهيئته يوم كان الخيار بين الغنائم و بين رسول الله ﷺ ، فأعلن الأنصار « رضينا برسول الله ﷺ قسماً و حظاً » و تقوم معركة جديدة بين المعسكرات و الدعوات ، و النظم و الفلسفات ، و تعقد ألوية جديدة يرفعها قادة الجاهلية الجديدة وزعماء الثورة على الاسلام ، فليكن هتافكم فى هذا المعترك الجديد و التخيير الجديد بين اتباع الاسلام و الانضواء إلى راية محمد عليه السلام و بين الانضواء إلى رايات منافسيه ، ليكن هتافكم فى هذا « رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً و حظاً » .

و أنتم أبناء أبناء الأنصار و أبناء أولئك البررة الذين شهد لهم لسان النبوة بالايمان و الفقه و الحكمة ، و كفى به فخراً و شرفاً .

أكتفي بهذا و أشكر منظمي هذا اللقاء العظيم و الذين جاءوا من أماكن بعيدة و سمعوا هذا الحديث بآذان صاغية و قلوب واعية ، و أحمد الله تبارك و تعالى على أنه كتب لى هذه الزيارة لهذه الأرض الطيبة الحبيبة ، وحقق لى الأمنية العزيزة القديمة التى راودتنى و خامرت قلبى منذ أعوام طوال ، لما بينى و بين اليمن الميمون — و قد اعتاد كثير من علماء الهند أن لا يذكروا اليمن إلا مقروناً بالميمون — من صلات ثقافية (١) ، و روابط دينية

---

(١) أنا تلميذ الشيخ خليل بن محمد بن حسين الأنصارى اليمانى من أبناء الحديدة تخرجت عليه فى اللغة العربية و الأدب العربى ، وشيخى العلامة حيدر حسن شيخ الحديث فى دار العلوم ندوة العلماء ، و والدى العلامة عبد الحى الحسنى ، تلميذان للعلامة حسين بن محسن الأنصارى السبيعى اليمانى فى الحديث ، و هو من مواليد الحديدة و تلاميذ الشيخ أحمد بن محمد بن على الشوكانى (و هو تلميذ والده الامام ★

و علمية ، فلله الحمد فى الأولى و الآخرة .



★ محمد بن على الشوكانى صاحب « نيل الأوطار » وتلميذ العلامة المحقق محمد بن ناصر الحسينى الحازمى ، و قد انتقل إلى بهوفال وشمر عن ساق الجد فى نشر الحديث و تدريسه ، أخذ عنه عدد كبير من كبار العلماء و الأساتذة ، كالعلامة السيد صديق حسن أمير بهوفال والشيخ محمد بشير السهسوانى و الشيخ شمس الحق الديانوى و غيرهم ، كانت وفاته سنة ١٣٢٧هـ .

مصدر قوة المسلم

[حديث ألقى فى لواء المدرعات بصنعاء صباح ١٩ / من شعبان ١٤٠٤هـ - ٢٠ / مايو ١٩٨٤م ، ونقل من الشريط وتناوله المحاضر بالحذف والزيادة و التنقيح والتهذيب ، فأصبح حديثاً محرراً مستقلا ، وذلك رجاء أن يكون أكثر تركيزاً و قوة ، ويعم نفعه للقوات العسكرية فى جميع البلاد الاسلامية]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « و لا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، و ترجون من الله مالا يرجون و كان الله عليماً حكيماً (١) » .

إخوانى الأعزاء ! تعلمون جميعاً و أنتم و الحمد لله مثقفون متعلمون أبناء هذه التربة الكريمة الندية ، الايمانية اليمنية ،

---

(١) سورة النساء — ١٠٤ .

أن الدعوة الاسلاميـــة قامت على أكتـاف البشر ، و الفتوح و الانتصـارات التى تحققت وتمت فى الشرق و الغرب إنما تحققت على أيدى بنى آدم ، لم يكن الأمر أن المسلمين كانوا من جنس الجن أو الملائكة ، ومنافسوهم كانوا من البشر ، لا ، كلهم بنو آدم ، وكلهم من لحم ودم ، وكلهم كانوا يحملون أجساماً خاضعة لناموس السنن الالهية والطبيعـة البشرية ، تجرح وتكلم ، و تتأذى و تتألم ، هم فى ذلك سواء ، فاذا قسنا هذه الأجسام البشرية وهذه المواد الانسانية بمقياس الطبيعة ، كانوا سواء فى ذلك .

و لـكن الله سبحانه و تعالى يقول للسلمين و يعلمهم كما يعلم الأستاذ الكبير و المربى العطوف الأطفال الصغار : « و لا تهنوا فى ابتغاء القوم (١) » ، تقولون لا قبل لنا بالأعداء ، فاننا نحمل أجساماً بشرية تتأذى و تتألم و تصيبها جراحات وكلم ، فيقول الله تعـــالى : « إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون (٢) » يعنى إن كنتم تشعرون بالألم ، فان منافسيكم كذلك يشعرون بالألم ، فانهم يحملون أجساماً بشرية مثلكم ،

ولـكن هنالك فارق كبير ، وهو أنكم ترجون من الله ما لا يرجو هؤلاء إنكم ترجون عند الله الثواب العظيم ، إنكم تؤمنون

---

(١) سورة النساء — ١٠٤ .　　(٢) أيضاً .

بأنكم إذا متم فى ساحة القتال فأنتم من الشهداء الذين يقول الله تبارك وتعالى عنهم : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات، بل أحياء و لكن لا تشعرون (١) » و يقول : « و لا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢) » ، ويقول : « و الذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم و يصلح بالهم ، و يدخلهم الجنة عرفها لهم (٣) » .

يقول رسول الله ﷺ : « ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا و له ما فى الأرض من شئ إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة (٤) » ، ويقول : « والذى نفس محمد بيده ما من كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم و ريحه ريح مسك » .

---

(١) البقرة — ٥٤ .

(٢) آل عمران — ١٦٩ .

(٣) سورة محمد — ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٤) البخارى و مسلم .

وفيه أنه قال : « والذى نفس محمد بيديه لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فـأقتل (١) » ، و يقول : « إن أبواب الجنـة تحت ظلال السيوف (٢) » ، و فى رواية : « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف (٣) » ، و قال : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع و لا يجتمع على عبد غبـار فى سبيل الله و دخان جهنم (٤) » .

و تؤمنون بأن كل جراحة تصيبكم إنما هى فى سبيل الله وكل قطرة من دمائكم تسيل على الأرض تغير مصائر الأمم و تنقل الناس من الظلمات إلى النور و أنتم تقضون على شقاء الانسانية و على شقاء الأمم ، إنما خرجتم لنشر هداية الله و إنقاذ البشرية ، كما قال سيدنا ربعى بن عامر لرستم قائد قواد الفرس حين قال له ما الذى جاء بكم ؟ « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى

---

(١) رواه مسلم و رواه البخارى بعضه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه الترمذى .

عبادة الله وحده و من ضيق الدنيا إلى سعتها و من جور الأديان إلى عدل الاسلام (١) » .

ما أعظم هذا الفارق و ما أكبره تأثيراً على المشاعر ومنهج التفكير وإثارة القوة المعنوية التي هي أكبر من قوة السلاح و قوة الأجسام بل أعظم من الطاقة الذرية ، والتي انتصر بها العدد القليل على العدد الكبير ، و الانسان الضعيف على الانسان القوى ، مآت و آلافاً من المرات ، فى تاريخ الحروب والغزوات ، فاذا أصابكم ألم فقولوا هذا فى سبيل الله ، فلا يهون هذا الألم فقط بل ينتقل إلى لذة و عزة و قد دميت إصبع رسول الله ﷺ فى القتال فتمثل بهذا البيت :

هل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت (٢)

إن عقيدة الايمان و عقيدة الثواب والأجر ، و الشوق إلى الجنة والحنين إلى الشهادة ، يأتى بعجائب لا يتصورها العقل ويحدث نشوة الايمان التى تقضى على ألم الجراح ، و قد روى التاريخ أن جعفر بن أبى طالب أخذ راية رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة (٣) ،

---

(١) البداية و النهاية لابن كثير .

(٢) فى الصحيحين .

(٣) كانت فى السنة الثامنة للهجرة .

فقاتل بها حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه ، فعقرها ثم قاتل ، فقطعت يمينه فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره ، فاحتضن الراية بعضديه ، حتى قتل ، وله ثلاث وثلاثون سنة ، و وجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ، ما بين ضربة بالسيف و طعنة بالرمح كلها فى الأمام ، و مات فتى الفتيان و هو يحن إلى الجنة ويتغنى بنعمائها ، يستهين بالعدد و العدد و بزخارف الدنيا (١) .

هل يتصور هذا من غير عقيدة تتغلغل فى الأحشاء و نشوة إيمانية تسرى فى العروق ، ولذة روحية تتغلب على الشعور بالألم؟ .

و أنا أروى لكم ثلاث حكايات و نماذج من هذا الايمان من عصر الرسالة وحياة الصحابة ، ثم أضم إليها ثلاث حكايات من تاريخ الجهاد والدعوة الاسلامية فى القرن الثالث عشر الهجرى فى عصر متأخر عن عصر النبوة و فى ناحية بعيدة — شبه القارة الهندية — عن مركز الاسلام و مهبط الوحى و منزل القرآن ، لتعرفوا أن تاريخ الايمان متصل و أن شجرة التربية الاسلامية تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، و خلية الاسلام تعسل فى كل مكان و زمان .

---

(١) ابن كثير ، ج/٣ ، ص/٤٧٤ ، و زاد المعاد ج / ١ ، ص/٤١٥ .

فمن حكايات عصر النبوة لما تراجع المسلمون يوم أحد تقدم أنس بن النضر فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ؟ ، فقال أنس واها لريح الجنة يا سعد ، إنى أجدها دون أحد (١) ، و يقول زيد بن ثابت رضى الله عنه بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لى : إن رأيته فاقرأه منى السلام و قل له : يقول لك رسول الله ﷺ كيف تجدك ؟ ، قال فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، فقلت يا سعد ! إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام و يقول لك أخبرنى كيف تجدك ؟ ، فقال و على رسول الله السلام ، و قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة ، و قل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله و فيكم عين تطرف و فاضت نفسه من وقته (٢) .

و الحكاية الثالثة هى حكاية خبيب رضى الله عنه ، لما جاؤا به ليصلبوه — و ذلك فى سنة ثلاث للهجرة فى الرجيع (٣) —

---

(١) زاد المعـاد ، ج / ١ ، ص/ ٣٥٠ ، و أصل الرواية فى الصحيحين .

(٢) أيضاً ، ص / ٣٥٣ .

(٣) و هو موضع بين عسفان و مكة .

قال لهم إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا ، قال دونك فاركع ، فركع ركعتين أتمهما و أحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال أما والله لو لا أن تظنوا أنى طولتهما جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة ، و أنشد بيتين :

فلست أبالى حين أقتل مسلماً   على أى شق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وأن يشاء   يبارك على أوصال شلو ممزع (١)

ولقائل أن يقول : أنت تحدثنا عن عصر كله سعادة وبركة ، وعن أناس نشأوا فى أحضان النبوة وفى مدرسة القرآن و الايمان ، و كيف يتوقع مثل هذه النفحات الايمانية من رجال تأخر عصرهم و بعد مصرهم ، و اختلفت بيئتهم ، فانى أعرض عليكم ثلاثة نماذج من هـذا الايمـان و البطولة ، ملتقطـة من تاريخ حركة الجهـاد والاصلاح التى قادها السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد(١٢٤٦هـ) فى شبة القارة الهندية (٢) ، يقول المؤرخ :

---

(١) رواه البخارى فى كتاب المغـازى ، و راجع للتفصيل سيرة ابن هشام ، ق / ٢ ، ص / ١٦٩ — ١٧٦ .

(٢) راجع للاطلاع على هذه الحركة العظيمة الفريدة و دوافعها و تفاصيلها فى كتاب صـاحب المحـاضرة « إذا هبت ★

رجع المسلمون من ساحة القتال فى « مهيار» ظافرين و قد اغبرت وجوههم وثيابهم من النقع حتى تقنعت وجوههم وتنكروا ، وقام الرئيس بهرام خان بالمنديل ينفض النقع عن وجه السيد الامام ، فقال السيد مهلا يا أخا الأفغان مهلا ، فان هذا النقع هو الغبار الذى قال فيه النبى ﷺ : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله و دخان جهنم (١) » ، و ما جئنا إلى هنا و ما تحملنا المشاق إلا لأجل هذا الغبار مهلا يا أخا الأفغان مهلا ، ومكث المجاهدون ولم ينفضوا عنهم الغبار فى ذلك الحين :

و الحكاية الثانية حكاية أحد المشاركين فى هـذه الغزوات الاسلامية يقول فتح على العظيم آبادى بينما أنا أمر بين القتلى والجرحى إذا بالسيد أبى محمد يجود بنفسه و قد أثخنته الجراح فدنوت منه وصرخت فى أذنه ، يا أبا محمد إن الله قد نصر أمير المؤمنين وهزم الأعداء ، و لم يلتفت أبو محمد و لم يتكلم و مازال يلحس شفتيه ويقول : « الحمد لله الحمد لله » فحملته إلى القرية وبه رمق ونفس

★ ريح الايمان » طبع مؤسسة الرسالة ببيروت ، ودار القلم بالكويت .

(١) فى السنن .

يتردد ، و هو يلحس شفتيه و يحمد الله و ما لبث أن لفظ نفسه الأخير .

و الحكاية الأخيرة أن القاضى الانجليزى (أيدورس) أصدر حكم الاعدام (الموت شنقاً) على الشيخ محمد جعفر (١) فى محاكمة أنباله فى ٢ من مايو ١٨٦٤م (١٢٨٠هـ) وقال ها أنا ذا أحكم عليك بالاعدام ومصادرة جميع ما تملكه من مال وعقار ، ولا يسلم جسدك بعد الشنق إلى ورثتك بل تدفن فى مقبرة الأشقياء بكل مهانة ، و سأكون سعيداً مسروراً حين أراك معلقاً مشنوقاً ، و لكن محمد جعفر استبشر حين سمع هذا وتهلل وجهه فرحاً ، كأنما تمثلت له الجنة و تمثلت له الحور و القصور و تمثل ببيت الشاعر :

هذا الذى كانت الأيام تنتظر فليوف الله أقوام بما نذروا

هنا تقدم ضابط إنجليزى و قال لم أر كاليوم قد حكم عليك بالاعدام وأنت مسرور مستبشر ؟ قال محمد جعفر ، ومالى لا أفرح و لا أستبشر ، و قد رزقنى الله الشهادة فى سبيله ؟ ، و أنت يا مسكين لا تدرى حلاوتها .

---

(١) كان من كبار أنصار السيد الامام و أتباعه و من المنظمين لبعث الامداد والمساعدات إلى مركز المجاهدين فى الحدود الغربية الشمالية من الهند .

وكذلك كان مولانا يحيي على الذى حكم عليه بالاعدام كذلك، فكان من أشد الناس فرحاً كأنه من شوق الجنه فى الجنة و من إنتظار النعيم فى النعيم ، ينشد الأبيات فى حنين و وجد و يتمثل بما قال سيدنا خبيب رضى الله عنه عند شنقة (١) .

و لكن هذا الفارق لا يأتى إلا عن طريق الرسالة السماوية ، و عن طريق الايمان و العقيدة وعن طريق التربية الاسلامية ، و عن طريق القيادة الايمانية و الشخصية القوية القيادية ، إن هذا فارق لا يشاركم فيه شعب و لا جيش من الجيوش و لا شباب من الشباب المسلمين المقاتلين ، وما هزم المسلمون ونكبوا بالكبات الاخيرة وفقدوا المركز القيادى فى العالم وخسروا بلادهم و دولهم ، و ما ذلوا و ما هانوا إلا حين ضعفوا فى هـذه القوة المعنوية و فقدوها على مر الأيام و لا تمكن استعادة هذا المركز و هذه المهابة فى القلوب ، والرجحان فى كفتين متساويتين فى العدد والعدد ، إلا بالاسترداد هذه القوة و الشحنة الأمانية و التربية الاسلامية ، و استحضار فضائل الجهاد و الشهادة فى سبيل الله و مدارستها .

والشئ الثانى هو تجنب ما يبعد عن نصر الله ويعرض لسخط الله و قد روى أن الأمراء فى اليرموك لما كتبوا إلى أبى بكر

---

(١) و قد مر البيتان .

وعمر رضى الله عنهما يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم وما يقابلونه من خطر داهم و عدد لا قبل لهم به ، كتبا إليهم إن اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً ، وألقوا جنود المشركين ، فأنتم أنصار الله ، و الله ناصر من نصره ، و خاذل من خذله و لن يؤتى مثلكم عن قلة و لكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها .

و لما أمر سعد بن وقاص جيشه بعبور دجلة وليست هنالك سفن ولا جسر ، والعرب لا عهد لهم بالسباحة و عبور الأنهار ، قال حسبنا الله و نعم الوكيل ، و الله لينصرن الله وليه و ليظهرن الله دينه إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات (١) .

و كتب سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيشه قال فيه : وآمره أن لا يكون من شئ من عدوه أشد احتراساً منه لنفسه و من معه من معاصى الله ، فان الذنوب أخوف عندى على الناس من مكيدة عدوهم و إنما نعادى عدونا و ننصر عليهم بمعصيتهم ، ولو لا ذلك لم يكن لنا قوة بهم لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فلو استوينا نحن وهم فى المعصية كانوا أفضل منا فى القوة و العدد فان لا ننصر عليهم بحقنا لا نغلبهم بقوتنا ، و لا تكونوا بعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم ، و لا تكونوا بالقدرة

---

(١) البداية و النهاية ، ج/٧ ، ص/٦٥ .

لكم أشد تعاهداً منكم لذنوبكم (١) .

هذا هو الفارق النفسى العميق ، الطبيعى الدقيق ، بين مقاتل لغرض مادى أو لمجرد نظام عسكرى و خضوع لما يصدر من القيادة من تعليمات و ترتيبات ، و بين من يقاتل فى سبيل العقيدة و فى سبيل الايمان و تصديق ما جاء من الله و رسوله من وعد و أخبـــار ، يتمثل ذلك فى ما روى فى تاريخ الغزوات الشامية ، أن رجلا جاء إلى أبى عبيـــدة يوم اليرموك ، و هو قائد الجيش الاسلامى ، فقال إنى قد تهيأت لأمرى فهل من حاجة إلى رسول الله ﷺ ، قال نعم تقرئه عنى السلام و تقول يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً (٢) .

ما أرسخ هذا اليقين ، و ما أشد هذا الايمان بأنه سيلقى الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا يقل هذا الإيمان من إيمان رجل يخبره صديق له بأنه مسافر إلى مصر أو إلى الهند أو إلى الحجاز ، فيحمله رسالة إلى أسرته، بل يخامر ذلك عشرة شكوك لعله يعدل عن السفر ، أو يتوجه إلى جهة أخرى أو يموت فى الطريق ،

---

(١) سيرة بن عبد العزيز لأبى محمد عبد الله ابن حكم المتوفى سنة ٢١٤هـ .

(٢) البداية و النهاية ، ج / ٧ ، ص / ١٢ .

أو لا يقابل أعضاء أسرته ، أو ينسى الرسالة ، ولكن إيمان المسلم الذى يتهيأ للقتال بلقاء الرسول ﷺ وثقة أبى عبيدة بهذا اللقاء أعظم وأقوى من ثقتنا باتجاه أحدنا إلى بلد من البلدان و وصوله إليه .

و هذا الفارق النفسى يتجلى فى ما ينقل من حوار بين كلب صيد — الكلب المعلم — و غزال ، قال الكلب للغزال : لماذا لا ألحقك يا غزال ، و أنا مضرب المثل فى العدو و الجرى و قد مرنت على هذا و دربت ولكنى لا أدركك ، قال : لأنك تعدو لسيدك و أنا أعدو لنفسى ، و شتان بين من يعمل عملا ميكانيكياً لا دافع فيه و لا لذة ، و لا إيمان فيه و لا عقيدة ، و بين من يعمل مدفوعاً من عقيدته ومنبعثاً من أعماق نفسه ، و من أعماق العقيدة الراسخة و الايمان الجازم ، و عن تمثل للجنة و استنشاق أريجها وتنسم نفحاتها و طمع فى أجر الآخرة و القبول عند الله



درس من قوم سبأ

محاضرة ألقيت فى جامع المشهد بصنعاء فى ١٩/ من شعبـان ١٤٠٤هـ ـ ٢٠/ مايو ١٩٨٤م ، فى حفل كبير ملأ أرجاء الجامع الكبير .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين و شمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبـــة و رب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهـــم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط و أثل وشئ من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا و هل نجازى إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة و قدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث و مزقناهم كل ممزق ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور (١) » .

---

(١) سورة سبأ ـ ١٥ ـ ١٩ .

سادتى و إخوانى ! إننى سعيد ومغتبط برؤية هـذه الوجوه النيرة المشرقة التى اجتمعت فى بيت من بيوت الله لسماع حديث من أخ مسلم نأت به الديار و حالت بينهم و بينه البحار ، و لا يعرفون عنه إلا ما قيل الآن و إلا ما عرفوه من خلال كتاباته المتواضعة ، إن هـذا إن دل على شئ فانه يدل على القوة التى لا تزال كامنة فى الإخاء الاسلامى ، كامنة فى الرابطة التى تربط المسلمين بعضهم ببعض ، على بعد الدار و حيلولة البحار و قلة المزار .

إخوانى ! إن الواقع أن الجو الذى أتحدث فيه كان يفرض علـى أن أبدأ بشئ يبشركم و يسركم و يسرنى ، و لست الرجل المتشائم - و الحمد لله - إنى بفضل الله تبارك و تعالى وبفضل هذا الدين الذى أدين به و تدينون به ، قوى الثقة كبير الأمل فى نصر الله تبارك و تعالى ، و فى صلاحية هذه الرسالة و خلودها ، وإنى و الحمد لله متفائل ومستبشر ، ولكن قرأت هذه الآيات لنتلق منها درساً ، والرسول كان بشيراً ونذيراً ، والقرآن فيه البشارة والانذار و قد حكى الله سبحانه و تعالى حكايات الأمم السالفة و الحضارات البائدة والمجتمعات المندثرة لتكون عبرة لنا جميعا ، ولنتلق منها دروساً ، و قد ضرب الله الأمثال وعرض النماذج المختلفة لأن فيها عبرة ودرساً .

وهذه الآيات التى تلوتها عليكم لها نسب جغرافى وتاريخى (١) ـ لا أقول نسب آخر ـ لبلادكم ، وهى موضع العبرة ، لا لكم أيها الإخوان اليمنيون ، بل هى موضع عبرة ودرس لكل مجتمع إنسانى ، ولكل بلد مسلم وغير مسلم ، فان هذه الآيات تعرض علينا حقيقة عالمية خالدة ، حقيقة نفسية إنسانية ، حقيقة تستحق التأمل والدراسة ، هى حقيقة أن الانسان يسأم ويضيق صدره ويتخم من نوع واحد ، وإن كان هذا النوع النوع السامى الرفيع ، النوع الذى يتهالك عليه ويتقاتل فى سبيله العقلاء ، والملوك والأمراء .

ولكن من مواضع الضعف فى الطبيعة الإنسانية أنه إذا خص بنوع خاص ، بنوع لذيذ عزيز ، كريم جميل ، ودام هذا النوع زمناً ، فانه يسأمه ويضيق صدره منه ، كما أن الانسان يتخم من مأكولات فيعافها ويزهد فيها . كذلك الانسان يتخم بالنعم وهذا الذى وصفه الله تبارك وتعالى بالكلمة البليغة « البطر » : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها (٢) » ، لم تكن فقيرة ،

---

(١) تقع مأرب عاصمة مملكة سبا فى شرقى صنعاء على مسافة ١٧٣ كيلو مترا منها ، وكانت سبأ هى أقدم الدول اليمنية القديمة ، وأخلدها ذكرا ، ومنها تسلسلت أنساب حمير وكهلان .

(٢) سورة القصص ـ ٥٨ .

و لكن قد تضخم فيها الغنى وتضخمت فيها الثروات ، و توفرت وسائل الرفاهية والنعمة ، فبطرت معيشتها واشتهت نوعاً آخر ، و إن كان نوعاً قاسياً يزهد فيه الانسان العادى الذى رزق سلامة الفطرة وصحة الفكرة ، ولكن من خصائص الانسان و من مواضع الضعف فى الفطرة الانسانية أنه إذا طال أمده بجو خاص و وضع خاص ، اشتهى نوعاً آخر ، و قال قد سئمنا هذا الرخاء و هذا التوسع فى المطاعم و المشارب ، و هذه النعم التى تغدق علينا صباح مساء ، و التى نتقلب فى أعطافها ونتأرجح فى أرجوحتها ، ونتمع فى ظلالها ، لا حاجة لنا فى هذه النعم ، نريد تجربة أخرى ، نريد التقشف و المشقة و التعب .

هذا موضع ضعف فى الطبيعة البشرية ، كانت ولا تزال ، وقد حذر الله منها ، إنه دائماً يحث على الشكر على النعمة ، حتى يقول لرسوله الحبيب : « و أما بنعمة ربك فحدث (١) » « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد (٢) » ، هنا قص الله علينا قصة قوم سبأ ، وقصة قوم سبا هى القصة الخالدة التى تصور جانبا دقيقاً عميقاً من جوانب الطبيعة البشرية يجب أن لا نتغافل عنها ، بل نعتبر بها ، لأن الله سبحانه تعالى إنما قص علينا

---

(١) سورة الضحى - ١١ . (٢) سورة إبراهيم - ٧ .

القصص للاعتبار فقال : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (١) » ، وقال : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (٢) » ، وقال : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن (٣) » ، والقرآن ليس تاريخ الحضارة الانسانية ، إنه يقص علينا قصص الشعوب القديمة و الحضارات و المجتمعات الماضية لتكون لنا عبرة ، و لأن هنالك مماثلات عجيبة ، هى موضع تأمل علماء النفس ، ورجال الحكمة وأصحاب الاختصاص فى التاريخ البشرى ، و كذلك موضع دراسة و عبرة لقادة الأمم و الشعوب و الباحثين و الأساتذة الكبار ، إن الحكمة الالهية تعرض علينا صورة دافقة بالحيوية بارزة الملامح والقسمات ، صورة بارعة تنطق بلسانها ، إلى أى درجة وصل قوم سبأ من السعادة والرخاء الذى يتمناه الانسان ، ويجاهد فى سبيله الفاتحون ، والمؤسسون للحكومات « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا

---

(١) سورة يوسف ـ ١١١ .

(٢) سورة الاعراف ـ ١٧٦ .

(٣) سورة يوسف ـ ٣ .

فأرسلنا عليهم سيل العرم ، و بدلناهم بجنتيهم جنتين : ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل (١) » .

القرآن يضع أصبع الانسان على الوتر الحساس ، على موضع الداء . لماذا جاء هم هذا البلاء ، لماذا انتزع الله عنهم هذه السعادة و هذا الرخاء العظيم الذى يتقاتل فى سبيله الملوك ؟ إن القرآن يضع أصبع قارىء القرآن كما يضع الأستاذ أصبع تلميذه الصغير على حروف الهجاء فى الكتاب ، فيقول تعالى : « وجعلنا بينهم و بين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة و قدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى و أياماً آمنين (٢) » ، يقول المفسرون أن مساكن سبأ كانت لطيفة الهواء حسنة التربة لا تحدث فيها عاهة ، ولا يكون فيها هامة حتى أن الغريب إذا حلها و فى ثيابه قمل أو براغيث ماتت ، وقد جعل الله بينهم و بين الشام قرى ظاهرة . وجعل نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين من السير ، فلا يحتاج مسافرهم لحمل زاد ولا ماء ولا مبيت فى أرض خالية و لا يخاف من عدو ونحوه ، بل حيث نزل وجد ماء أو ثمراً ويقيل فى قرية و يبيت فى أخرى بمقدار ما يحتاج إليه فى سيره ، حتى أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار

---

(١) سورة سبأ ـ ١٥ ـ ١٦ .

(٢) سورة سبأ ـ ١٨ .

على رأسها مكتل أو زنبيل وهو الذى تخترف فيه الثمار فيتساقط فيه من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه و استوائه (١) .

و لكنهم سئموا ما كانوا فيه من النعمة و الغبطة و العيش الهنئ الرغيد والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة (٢) ، فطلبوا تبديل اتصال العمران وفضلوا المفاوز و القفار ، و قالوا أيش هذا السفر ؟ نقرأ فى كتب الرحلات (و إن كان زمناً متأخراً قالوا فى رحلات سندباد البحرى و لكن الزمن متقدم) أو نسمع عن الجوابين و الرحالين أنه كانت القوافل تمشى و تخاف المغيرين و كانوا يأخذون الخريت والحرس معهم، ويحملون السلاح لصيانتهم وبعد ذلك يبيتون ليالى و يحرسهم الناس ، ثم يمشى واحد ويأتى بالحطب ويشعل النار ثم يطبخ ويضع عليها القدر ويغلى ، ثم يطبخ الطعام ثم يأكله ، نقرأ هذه الحكايات بلذة ، هذه كانت رحلات فى الحقيقة ، رحلات هى تجارب و مغامرات ، رحلات فيها تنوع وتفنن ، ينتقل الانسان من راحة إلى تعب ، و من تعب إلى راحة ، نحن سئمنا هذا ، نمشى فى ظلال الأشجار ونأكل من الثمار

---

(١) مستفاد من تفسير ابن كثير و روح المعانى .

(٢) اللفظ لابن كثير .

بطريق تلقائى ، لا ، ما نريد هذا ، نريد الأسفار المتعبة ، نريد الصحارى الموحشة والأراضى القاحلة ، نريد المشقة ، نريد المغامرات ، نريد المخاطر .

هذا من ضعف الفطرة البشرية ، بدل أن يحمد و الله تبارك و تعالى على هذا و يبقوا فى هذا النعيم إلى أن يشاء الله ، طلبوا العكس قالوا « ربنا باعد بين أسفارنا (١) » كما أن الحجاج فى هذا العصر يقولون أيش هذا الحج ؟ أيش هذه الرحلات المتنعمة ، نريد أن يعود الزمان الماضى و نركب الابل و يموت بعض الناس عطشاً لعدم وجود الماء ، لا لذة فى الحج الآن ، نريد تلك الأيام التى كان مآت من الناس يموتون عطشاً فى عرفات و فى منى ، و كان يغير عليهم البدو .

فماذا كانت العاقبة ؟ عاقبهم الله سبحانه وتعالى يسلب هذه النعم كلها وبدل بها تلك الأسفار الشاسعة الخطرة ، « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث و مزقناهم كل ممزق » .

هذه قصة ربما يتخيل الانسان أن هذه قصة بسيطة ، و ربما يشك فيها كثير من الناس ، كيف تمسخ الطبيعة البشرية إلى هذا الحد ، هل تصل الطبيعة البشرية فى أمة متمدنة كقوم سبأ إلى

---

(١) سورة سبأ : ١٩ .

هذه النهاية، إلى هذا الخط من المسخ والانحراف و من الاعوجاج و الفساد ؟ ، تستبعد هذا ، ولكن القرآن قد حكى لنا هذه القصة ، و القرآن هو كتاب الله والرسول لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، لا يا إخوانى ! التاريخ يصدق هذا ، والواقع يصدق هذا ، فهنالك شعوب نعرفها أنعم الله عليها و أغدق عليها النعم و أمطر عليها شآبيب من الراحة و الرخاء و من هذا الرخاء و من رغد العيش وهناء الحياة ولينها ، و لكنها عادت سئمة ضيقة الصدور من هذا الرخاء تريد الفقر وتريد المخاطر وتريد ضنك العيش وتريد تفرق الكلمة وتريد أن تجرب حياة قاسية ، حكى لى بعض الاخوان الثقات أن بلاداً سعيدة أكرمها الله بشئ كثيراً النعم و الخيرات ، قال بعض رجالها المثقفين لبعض زعماء البلاد التى أخذت بالنظام الاشتراكى والشيوعى و هى بلاد فقيرة ، شيوعية منحرفة عن الدين وعن الخط السليم، قال هؤلاء لهم : إن عندنا غنى وعندكم فقر ، عندنا دين وعندكم كفر ، اعطونا فقركم ونعطيكم غنانا ، اعطونا كفركم ونعطيكم ديننا ، هذا حق ، سمعته أنا بطريق لا يشك فيه ، و هذا إعوجاج الفطرة البشرية كان و لا يزال ، و القرآن لا يتعرض لذكر شئ إلا وهو صالح للعودة وللبقاء، أما الأمراض التى انقرضت ولا تعود أبداً ما تعرض لها القرآن ، الذى يدرس القرآن دراسة عميقة

يعرف أن القرآن ما ذكر من مواضع الضعف فى الفطرة أمراض الأمم البائدة و الشعوب المنقرضة الزائلة إلا ما هو من مواضع الضعف فى الفطرة البشرية. وهو إما موجود و إما يعود .

فالقرآن يحكى لنا قصة سبأ، إن الله الحكيم الخبير العليم يعرف أن هنالك شعوباً وهنالك مجتمعات تسلك نفس الخط، تسلك نفس الطريق، بطر ، بطر ، الله سبحانه و تعالى يعطيها ما تحتاج إليها و لكنها تكفر بنعمة الله ، وتريد البؤس وتريد الفقر وتريد المخاطر والمهالك وتريد القسوة و شظف العيش ، لماذا ؟ لاتخامها و سآمتها من هذه النعم وبتأثير الدعايات وبتأثير المغريات المضللة وبتأثير العوامل الاجتماعيـــة و العوامل الخارجية و السياسية ، تتمنى أن تعود إلى الفقر و ضنك العيش و الضيق و الشدة ، كذلك سجل القرآن هذه الحكاية التى لا يحويها كثير من كتب التاريخ لأن سبيل كتب التاريخ غير سبيل القرآن ، أنها تعنى بالحوادث السياسية وتعنى بما يختص بالبلاد و بالملوك و بالوزراء و الحروب والغزوات ، أما ما كان فى صالح الانسانية وما كان فيه درس للدارسين والمعتبرين فلا ، و لكن القرآن بالعكس من ذلك لا يعنى بهذه الحكايات ، حكايات تقلبات الأمم و تبدل الحكومات و الفتوح و الغزوات ، هذا موضوع التاريخ ولا بأس به ، ولكن القرآن يعنى بأمراض البشرية

يعنى بمواضع الضعف فى الطبيعة الانسانية ، يعنى بما فيه عبرة و ما فيه درس للانسان فى كل مكان و فى كل زمان .

إن الذى أخشى (أقول بصراحة) على المجتمعات الاسلامية الكثيرة هنا و فى آسيا فى شبه القارة الهندية و فى أوربا و فى أمريكا هو البطر : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين (١) » ، إننا نفهم ونشهد و نؤمن بأن ما قاله القرآن هو حق و يمكن أن يرى فى مرآة الشعوب المعاصرة وبعض المجتمعات الموجودة .

إخوانى ! يجب أن نستعرض حياتنا فى ضوء القرآن ، يقول القرآن : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون (٢) » ، يعنى فيه الحديث عنكم ، فيه تصويركم ، كان سيدنا الأحنف بن قيس رحمه الله من أخص أصحاب سيدنا على رضى الله عنه وسيد قومه ، مرة جالساً ، إذا به يسمع إنسانا جالساً قريباً منه يقرأ القرآن ، فاذا هو يقرأ : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون » فانتبه ، كأنه كان نائماً ، قال : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم » هل فى القرآن حديث عنى؟ ، على بالمصحف على بالمصحف ، فحضر المصحف فصار يقلب الصفحات يفتحه من غير قصد ، فاذا به يمر

(١) سورة القصص ـ ٥٨ . (٢) سورة الأنبياء ـ ١٠ .

بقوم يقول الله تبارك و تعالى عنهم : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، و الذين هم للزكاة فاعلون (١) » ، قال اللهـم لا أجد نفسى فى هؤلاء ، و مر بقوم يصفهم الله تبارك و تعالى و يقول : « و عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً (٢) » قال اللهم لا أجـد نفسى فى هؤلاء ، أنا أصغر من هؤلاء ، ثم مر بقوم يقول الله تبارك و تعالى عنهم : « تتجافى جنوبهـم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً و طمعاً (٣) » ، قال اللهم إنى لا أجد نفسى فى هؤلاء ، ثم قلب الصفحات فاذا به يمر بقوم يصفهم الله تبارك وتعالى بصفات معاكسة فيقول: « ماسلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، و لم نك نطعـم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، و كنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين (٤) » ، قال اللهم إنى أعوذبك من هؤلاء ، و لكن أين أنا ، ، أين صفى ؟ ، ويقلب الصفحات و يقلب ، حتى مر بقوله تعالى : «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ،

---

(١) سورة المؤمنون ـ ١ـ٤ . (٢) سورة الفرقان ـ ٦٣ .

(٣) سورة السجدة ـ ١٦ .

(٤) سورة المدثر ـ ٤٢ ـ ٤٧ .

عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم (١) » . قال اللهم إنى ههنا ، اللهم إنى ههنا .

هكذا يجب أن نقرأ القرآن ونستعرضه و نستفسره ونستوضحه و نستوحى منه واقع الحياة و نبحث عن مكاننا فى هذه المجموعة من صور الأمم و من صور المجتمعات البشرية و النماذج الانسانية — و القرآن مرآة و ضيئة نرى فيها وجهنا فنمسح ما فيه من غبار و من تراب و من وصمات — و نعرف مواضع هذه الوصمات فنغسلها .

إخوانى ! أقول لكم ولا أريد أن أطيل عليكم يجب علينا أن لا نبطر و يجب علينا أن نحمد الله على النعم ، و أن نضعها فى مواضعها الحقيقية ، لا نبطر ولا نكون كما يقول الله تبارك وتعالى: « و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً (٢) » ، لا نكون من المترفين و لا نكون من البطرين ولا نكون من الجاحدين للنعم ولا من الكافرين بالنعم ، ولا نكون من الذين يقول الله تبارك وتعالى عنهم : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار (٣) » ،

---

(١) سورة التوبة ـ ١٠٢ . (٢) سورة الاسراء ـ ١٦ .

(٣) سورة إبراهيم ـ ٢٨ .

هذا تبديل « بدلوا نعمة الله كفراً » كما قال بنو إسرائيل لما أنزل الله عليهم المن و السلوى و كان من ألذ الأطعمــة ، قالوا نتمنى القثاء و الفوم ، و العدس ، و البصل : « و إذ قلتم يا موسى لن نصبر عـلى طعام واحد فادع لك ربك يخرج لنـا مما تنبت الأرض من بقلها و قثائها و فومها و عــدسها و بصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً فان لـكم ما سألتم (١) » ، هذه هى الطبيعة البشرية ، فاذا أنعم الله عليكم بالنعم فارجعوا إلى الله تبارك و تعالى و احمدوا الله على الموجود و اطلبوا منه المزيد ، و لـكن لا تكفروا بنعم الله و لا تبدلوا نعمة الله كفراً ، و لا تتورطوا فيما تورط فيه غيركم من الشعوب و البلاد ، فهم فى عذاب أليم و فى بؤس و شقاء و فى جحيم ، فأتتهم كل نعمة حتى حرموا لقمــة العيش و أصبحوا متشككين متذمرين متشائمين لا يثق أحد بأحد حتى لا يثق الأخ بأخيه ، و لا يثق الزوج بزوجته ، كل إنسان ينظر إلى أخيه بعين الشك ، حتى فى الخلوات لا يستطيع الانسان أن يبوح بما فى ضميره ، يرى يميناً وشمالا ، لعل الجدران تسمع ، ولعل هنالك مسجلا ، ويخاف أن تعد عليه الأنفاس . فيقال له أنت تنفست كذا كذا من الأنفاس ،

(١) سورة البقرة ـ ٦١ .

أصبح المجتمع مجتمعاً معذباً منكوباً .

هذا الذى نخشاه على المجتمعات الاسلامية فى البلاد الاسلامية التى أكرمها الله بالأمجاد و البطولات و بالصحابة رضى الله تعالى عنهم وطئوا أرضهم و نشروا فيهـا الاسلام ، و ربطوا المجتمع بالاسلام ، و كان لهذه البلاد و لهـــذه المجتمعات دور عظيم فى تاريخ الاسلام و فى تاريخ الدعوة الاسلامية و فى تاريخ الفتوح الاسلامية و شهد لهم العالم الاسلامى بالايمان و الفقه و الحكمة و أكثر من ذلك ، شهد لهم الرسول ﷺ بالايمان فقال . «أتاكم أهل اليمن ، أرق أفئدة و ألين قلوباً ، الايمان يمان و الفقـــه يمان ، والحكمة يمانية » أيستبدل المجتمع اليمانى من كل هذا بماذا؟ بالشك و الريب و التهم و التعذيبات و المضايقات و المحاكمات و الاجلاء و النفى و التشريد و التفتيك و التقتيل ؟ ، فاحذركم عما حذر الله تبارك و تعالى فى القرآن فقال : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة و رب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط و أثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بماكفروا وهل نجازى إلا الكفور (١) » .

(١) سورة سبأ - ١٥ - ١٧ .

علينا بالمشى على الخط السليم الشرعى الدينى ، نتبع الشريعة المحمدية الاسلامية الغراء و نحكمها فى حياتنا ، إننا نطالب بتحكيمها فى الخارج ، و هذا صحيح ، و لكن نحكمها فى نفوسنا أولا ، نحكمها على رؤوسنا و فى نفوسنا و فى الحياة الداخلية المنزلية و بيننا و بين أفراد أسرتنا و فى معاملاتنا الفردية و الاجتماعية ، هنالك يقدر الله تبارك و تعالى تحكيم هذه الشريعة فى الحكم و المعاملات و فى التجارة و فى الخارج ، لا ملجأ و لا منجا لنا من الله إلا إليه ، قد وصلنا إلى الدرجة التى وصفها الله تبارك وتعالى بقوله ، « ضاقت عليهم الأرض بما رحبت و ضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه (١) » ، هذا الوصف الذى ينطبق على كثير من البلاد الاسلامية ، فلا ملجأ من الله إلا إليـــه ، ففروا إلى الله كما يقول القرآن .

أشكركم على هذا الاجتماع الكبير والجم الغفير من المستمعين الكرام و ادعو الله لى و لكم بالعافية ، يا إخوانى ! أطلبوا من الله أن يوفقكم و يوفقنا جميعاً للشكر على النعم ، و تتعوذون من البطر و من الكفر و الكفران بالنعم و من تبديل نعمة الله بنقمة الله — و السلام عليكم و رحمة و بركاته .

---

(١) سورة التوبة - ١١٨ .

من معاني الإسراء والمعراج

[معان اقتطفت من كلمة ألقيت في مسجد سيدنا عمر بن الخطاب بالزرقاء في عمان في ليلة الاسراء و المعراج (٢٧ من رجب ١٤٠٤هـ) و محاضرة ألقيت في جامعة اليرموك بالأربد في ٢٩ من رجب ١٤٠٤هـ و كلية العلوم العربية في عمان غرة شعبان، وكلها يدور حول الإسراء والمعراج و المسجد الأقصى المبارك] .

بعد الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » (١) .

---

(١) سورة الاسراء آية ١ .

أيها الاخوة الكرام ! إن هذه الآية هى خير ما يفتتح بها هذا الاحتفال فى ليلة الاسراء والمعراج ، ونحن على غلوة سهم - على التعبير القديم - من المسجد الأقصى الذى أسرى بالرسول ﷺ إليه ، ومنه إلى السماء ، إن هذا الاسراء من مكة إلى القدس ومنه إلى السماء دل على معان عميقة بعيدة الأثر ، طويلة المدى فى تاريخ النبوات والديانات و فى المسيرة الانسانية .

فدل أولا على أن شخصية الرسول تلتقى فيها الأرض بالسماء ، و الجزيرة العربية بأرض النبوات الأولى ، الأرض التى بارك الله حولها ، و يلتقى زمن النبوات الأولى بعهد النبوة الأخيرة ، فأى التقاء أكبر وأوسع وأجمل من هذا الالتقاء ، فالبشرية تلتقى بمصدر النبوات والهدايات السماوية ، و الأرض تلتقى بالسموات العلى ، إنه إذا انقطعت صلة الأرض بالسماء كانت هنالك متاهات وضلالات ، وسخافات و سفالات ، فوصل الله الأرض بالسماء بنبوة محمد ﷺ والاسراء به ، فهذه الأمة أمينة لهذا الاتصال ، أمينة لهذا الالتقاء الأرضى و السماوى ، و الزمنى و المكانى ، القاضى على الحدود الجغرافية ، و الحواجز المكانية ، و الفوارق الزمنية و الاعتبارات العنصرية و الجنسية ، و يجب أن يتجلى هذا الالتقاء الكريم الفريد فى كل مناهج حياتها ، فى حضارتها واجتماعها ، وفى علمها وتفكيرها ،

و فى فلسفاتها و أدبها ، و فى خيالها و جمالها .

و فوق ذلك إن سورة الاسراء إعلان بأن بنى إسرائيل قد فقدوا الجدارة والصلاحية للهداية الربانية ، وتقلد الزعامة الدينية ، و قيادة البشرية ، لما أصابهم من أمراض خلقية ، و انحرافات عقائدية ، دينية روحية ، باطنة و ظاهرة ، فهذه السورة فصل و فارق بين عهد و عهد ، وبين زمن وزمن ، لذلك سميت سورة بنى إسرائيل كذلك ، إن بنى إسرائيل قد فقدوا ـ على مر الزمان ـ الصلة الوثيقة العميقة بالانسانية ، ومصيرها و وضعها ، و مشكلاتها و حلولها ، و التفكير الانسانى الرحيم الرقيق ، بالعكس عكفوا على السلالة يقدسونها و ينظرون إلى كل قضية من قضايا الانسانية من زاويتها ، و يزنونها بموازين تعود على السلالة بالنفع و القوة ، والله رب العالمين ليس رب بنى إسرائيل فقط ، فعزلوا عن المنصب الذى قلدوه قروناً عديدة ، وأختيرت له الأمة التى بعثها الله سبحانه و تعالى مع النبى الموعود الأخير محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى العربى ﷺ . الأمة التى عهد إليها نشر عقيدة التوحيد الصافية ، والأخوة الانسانية ، و المساواة البشرية ، فأعلن القرآن فى لفظ صريح واضح : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله

أتقاكم » (١) ، و نادى رسول الله ﷺ فى الحج الأكبر :
« إن ربكم واحد و إن أباكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى و لا لعجمى على عربى ، و لا لأبيض على أسود و لا لأسود على أبيض ، إلا بالتقوى » (٢) .

و لما كان ذلك تحولا كبيراً من أعظم التحولات فى تاريخ الديانات ، و فى تاريخ مصائر الأمم ، وفى تاريخ الوقائع البشرية ، كان هذا الحدث العظيم جديراً بأن يطلب الله النبى الكريم إلى السماوات العلى ويسلمه منصب القيادة بطريق مباشر ويشرفه بالقرب و التكريم الذى لم يتلق به أحداً من قبله .

إخوانى ! إن اليهود لا مستقبل لهم إذا كان الله حكيماً رحيماً ، و إذا كان الله رب الأجيال البشرية كلها ورب العالمين ، لا رب خراف بنى إسرائيل الضائعة ، فلا مستقبل لليهود أبداً و لو فتحوا العالم كله — لا قدر الله — لأن اليهود أمة تقوم على تقديس العنصر و السلالة ، أمة تقوم على الحقد للبشرية و التاريخ كله ، أمة تقوم على الأحلام و الأمانى السلالية و الشعبية فقط ،

---

(١) سورة الحجرات ـ ١٣ .

(٢) ابن النجار عن أبى سعيد بزيادة بعض الكلمات (الجامع الكبير للسيوطى) .

و لا شأن للانسانية بهذه الأمانى و الأحلام ، إن حاجة الانسانية أمة تقود البشرية كلها و تربط مصيرهـا بمصير البشرية ، لأن الله سبحانه و تعالى لم يخلق الجيل البشرى ليكون عبداً لسلالة خاصة ، هذا ما لا يسوغه ويسيغه عقل بشرى ، فكيف بالله تبارك وتعالى ، إن اليهود ليست لهم أصول ولا جذور فى الأرض ، إنما هو شئ طافىء على سطح الماء

إن الاسراء أيها الاخوان لم يكن ليكون عيداً فى الأمة يحتفل به كل عام ، إن الاسلام ليس دين الأعيـاد كما هو الشأن فى ديانات أخرى ، فانها تقوم على الأعياد والمهرجانات ، و الأيام التى تحتفل بها ، و إذا أخـذ كل عيد تحتفل به طائفة من طوائفها ، كانت أيام السنة كلها أعياداً و مواسم ، و الأعيـاد هى التى تربط المجتمعات فى هذه البلاد بالديانات ، فلولا هذه الأعياد والمهرجانات لضاعت الديانات و نسيت ، فانهم يجتمعون فى هـذه الأعياد و يذكرون ما عـندهم من عادات ، و طقوس و عبادات ، فيقيمونها ، و بذلك ينتظم شملهم .

إن الاسراء لاشك خاص بالرسول ﷺ ، و لكنه سمو للانسانية عن طريق محمد ﷺ ، إن الله تبارك و تعالى قد ضرب مثالا ـ وإن كان هذا المثال مختصاً بالرسول الأعظم ﷺ ـ ولكنه

نبى بشر، فيشير إلى أن هنالك يبلغ البشر و إن كان مرة واحدة، و لكنه هو البشر الذى وصل ، و لم يبلغه غير البشر ، هذا يثير فينا السمو ، و يثير فينا الثقة بالانسانية و كرامتها .

و الشئ الثانى أن هذا الدين مرتبط بالسماء ، مرتبط بارادة الله تبارك و تعالى ، ليس مرتبطاً بالتجارب البشرية ، ليس مرتبطاً بالعقل البشرى ، ليس مرتبطاً بالمجهود البشرى ، بل مصدر هـــذا الدين هو السماء .

و المعنى الثالث أن سورة الاسراء تثبت أن هـــذه الرسالة عالمية إنسانية ، فاذا كانت غير هذا ودون هذا ، لما طلب محمد ﷺ من جزيرة العرب — وهو نائم فى مكة — إلى القدس ، ثم إلى السماوات العلى ، إن اتصاله أولا بالأرض المقدس بفلسطين ، التى هى بعيدة من جزيرة العرب ، ثم اتصاله بالسماء ، يدل على أن هذه الرسالة عالمية إنسانيـــة آفاقية ليست محصورة فى جزيرة العرب ، و إلا أى حاجة دعت إلى أن يطلب الله رسوله إلى القدس أولا ليصلى هناك بالأنبياء عليهم السلام ، ثم يطلبه إلى السماوات ؟ ، فلنعرف أن مركزنا أكبر ممـــا نحن فيه ، و إن مسؤليتنا أضخم مما نضطلع بها ، إن هذا البلد هو أصغر منا ، و إن البلاد مهما اتسعت بل إن الأرض كلها ، أصغر من شخصيتنا ، نحن أمة الرسالة ، نحن

أمة الهداية ، نحن أمة العالم وأمة الانسانية ، لسنا عرباً ولا عجماً ، لسنا أردنيين وسوريين ، وفلسطينيين وهنوداً و باكستانيين فحسب ، نحن أمة نبي الاسراء و المعراج ، الذى انعدمت فيه الأبعاد والمسافات ، والحواجز الجغرافية والاعتبارات السياسية ، والفوارق الجنسية .

هذه كلها معان و حقائق نستطيع أن نتلقاها و نتعلمها من ثنايا سورة الاسراء التى ضمنها الله القرآن الكريم الذى يدوم ويثبت إلى أن يرث الله الأرض و من عليها .

أهنئكم أيها الاخوان على ليلة الاسراء و المعراج ، و أنتم على مقربة من مكان الاسراء و المعراج ، و لقرب الزمان و المكان أثر و معنى ليس فى البعد ، فكيف إذا التقى قرب المكان بحلول الزمان ؟ ، لقد أدركت ليلة الاسراء و المعراج بعد ما عقلت أكثر من خمسين مرة ، و لكنها هى المرة الأولى التى تصادفنى فيها أو أصادفها ، على قرب من مكان الاسراء و المعراج ، فأثار ذلك فى نفسى معانى و أحاسيس جديدة لم يكن لى عهد بها ، وفتحت لى نوافذ جديدة لتفهم معانى الاسراء والمعراج ، و التأمل فى سورة بنى إسرائيل ، و الحنين إلى المسجد الأقصى و الصلاة فيه ، و الشوق إلى أن أراه فى مكانه الطبيعى التاريخى

العالمى، وفى أيدى الوارثين للرسالة الأخيرة، المؤمنين بجميع الأنبياء، الغيارى على رسالاتهم وأماناتهم، المحبين للانسانية كلها، المجاهدين فى سبيل اسعادها و النهوض بها، وحق لى أن أتمثل ببيتى الشاعر العربى القديم متمثلا للمسجد الأقصى المبارك، و أنا على مقربة منه فى عمان :

و لما نزلنا منزلا طله الندى أنيقاً و بستاناً من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى فتمنينا فكنت الأمانيا

إن القضية فى إنقاذ فلسطين، قضية العقيدة وقضية الأخلاق، قضية العزم الصادق، فاذا صحت العزائم و صدقت القلوب، زال اليهود كما يتقشع الضباب. نحن فى حاجة إلى تربية جديدة، تربية إسلامية، إلى عقيدة كأنها عقيدة جديدة، لسنا فى حاجة إلى دين جديد ـ حاشا لله ـ ولكننا فى حاجة إلى إيمان جديد، إذا كانت الأحوال غير عادية احتاج الانسان فيها إلى إيمان غير عادى، إلى إيمان قوى عميق، إلى إيمان حى دافق، إلى إيمان إذا لم يكن إيمان الصحابة رضى الله تعالى عنهم فليكن إيمان صلاح الدين الأيوبى، وكثير من الجنود التى قاتلت تحت رأيته، يقول القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد عن صاحبه صلاح الدين الأيوبى .

« إنه تاب عن المحرمات و ترك الملذات، و رأى أن الله

سبحانه و تعالى خلقه لأمر عظيم لا يتفق معه اللهو و الترف ، وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال . وكان كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها (١) » .

هنالك تبرز من أطماركم وأجسادكم شخصيات جديدة تقفز من الداخل و تفاجئ العالم ، و قد وقع ذلك مراراً فى التاريخ الاسلامى ، فاذا أظلمت الآفاق ، و إذا غارت النجوم، طلع نجم جديد على أفق العالم الاسلامى ، هكذا كان و هكذا سيكون إن شاء الله .

قد قلت بالأمس إذا كان هنالك استفتاء عام فى العالم الاسلامى ، استفتاء حر عن الرجل المطلوب المحتاج إليه اليوم فى العالم الاسلامى ، كان الجواب الوحيد صلاح الدين الأيوبى ، فيجب أن تتشوف نفوسكم لهذا المنصب الرفيع ، و قد جاء فى حديث خيبر أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « ليأخذن الراية غدا رجل يحبه الله و رسوله ، يفتح عليه » ، فتطاول له كبار الصحابة رضى الله عنهم ، ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كل منهم يرجو أن يكون صاحب ذلك ، و دعا علياً كرم الله وجهه فكان على يده

---

(١) النوادر السلطانية ص/ ١٥٥ ، وليرجع إلى ص/ ١٦-٢١٣ .

الفتح (١) » ، و الله سبحانه و تعالى يقول : « كلا نمد هؤلاء و هؤلاء من عطاء ربك و ما كان عطاء ربك محظوراً (٢) » .

و لابد لذلك أن ننشئ نفوسنا على التقشف و تحمل المشاق و على الشدة و الجلادة و الغيرة الايمانية ، و إيثار الآخرة على العاجلة ، و الاستهانة بالحياة الدنيا و زخارفها .

وأختم حديثى ببيتين للزركلى ، مخاطباً للأمة العربية الاسلامية :

هاتى صلاح الدين ثانيـــة فينـــا
و جددى حطين أو شبه حطينا



---

(١) الرواية فى صحيح البخارى وصحيح مسلم فى باب غزوة خيبر .

(٢) سورة الاسراء ـ ٢٠ .

الشخصية الإسلامية ووجوب المحافظة عليها

[معان التقطت من محاضرة ألقيت فى جامعة اليرموك بأربد ، سلخ رجب ١٤٠٤هـ ، وكلمة ألقيت فى كلية العلوم العربية فى عمان غرة شعبان ، وكلها تدور حول الشخصية الاسلامية ووجوب المحافظة عليها ، وأهمية الحضارة الاسلامية] .

بعد الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله :

أما بعد ! إخوانى و إخواتى ! يسعدنى و يشرفنى أن أتحدث اليوم فى قاعة جامعة اليرموك (١) ، الجامعة التى اقترن اسمها باسم

(١) سميت جامعة أربد بجامعة اليرموك ، اقرب ميدان اليرموك من هذا البلد ، فاذا ترك الماشى أربد بجانب وواصل سيره إلى الحدود الشمالية حتى يصل إلى المنطقة الجبلية ووقف فى قرية « أم القيس » استقبلته مرتفعات الجولان ، و ما بينه وبينها إلا واد عميق يجرى فيه نهر اليرموك منعطفاً ملتوياً و على ضفافه ميدان اليرموك .

أكبر معركة فى تاريخ الخلافة الراشدة ، المعركة الحاسمة الفاصلة فى التاريخ ، التى نستطيع أن نقول أنها غيرت مجرى التـاريخ ، إنه يلذ لى و يشرفنى أن أتحدث فى هذه الجامعة العزيزة المنسوبة إلى اليرموك ، الجـامعات كثيرة فى العالم و بلادى التى انتمى إليها هى مليئة بالجامعات ، و لكن هذه الجامعة بانتسابها إلى اليرموك حبيبة إلى نفوسنا ، فلها صلة عميقة متغلغلة فى أحشاء المسلمين ، مالكة عليهم المشاعر و العواطف تدل على ذلك الحكاية التى أحكيها لكم فى مفتتح هذه المحاضرة .

إننى لمـا دعيت لالقاء المحاضرات فى كليـة الشريعة التابعـة لجامعة دمشق ، و ذلك سنة ١٩٥٦م و الفضل فى ذلك يرجع إلى العلامة الفاضل مرشـد الاخوان المسلمين فى سوريا صـديقنا الجليل الدكتور مصفى السباعى عليـه رحمة الله ، فأنزلنى الدكتور مصطفى السباعى عميد الكلية فى فندق اليرموك ، وأعتقد أنه كان تقديراً من الله من غير تخير كبير ، فكتبت كتاباً إلى أحـد المؤلفين الباحثين الـكبار فى شبه القارة الهندية ، قد أثرى المـكتبة الاسلامية الهندية بمؤلفاته و بحوثه ، و كان رئيساً للقسم الدينى فى الجامعة العثمانية فى حيدر آباد (١) ، و كتبت فوق الرسالة « من فندق اليرموك »

---

(١) هو العلامة السيد مناظر أحسن الـكيلانى (مسنه ١٩٥٦) .

و صادف وصول هذا الكتاب وجوده فى المستشفى ، فقد كان يعانى من الذبحة الصدرية ، وكان رهين الفراش ، وكان هو مرضه الأخير الذى مات فيه ، فلما وصله هذا الكتاب واطلع على عنوان الكتاب « فندق اليرموك » كتب إلى يقول : « إننى كنت مريضاً تنتا بى أوجاع القلب و كنت رهين الفراش لا أستطيع أن أنهض و لكن لما جاءنى كتابكم نفخ فى روحا جديدة ، و كدت أرقص طربا لقراءة اسم اليرموك (١) ، فقد حضرتنى الذكريات الجميلة

---

(١) ميدان معركة اليرموك جزء من حوران ويشمل القسم الغربى منه، كان عدد المسلمين أربعين ألفا (٤٠٠٠٠) ، و بلغ عدد جيوش الروم إلى ما يقرب ٢٤٠ ألفا أى ستة أمثال أعداد المسلمين ، اشتد الهجوم الاسلامى فى الوقت المناسب و بدأ التراجع الرومى حتى لم يبق أمامهم سوى وادى نهر اليرموك السحيق و وادى الرقاد العميق ، وكلاهما لايمكن عبوره ، فبدأوا يلقون بأنفسهم فيهما فرارا من القتل ، وكان هذا فى وادى (الرقاد) إلى الغرب من (الواقوصة) حتى عرفت تلك المنطقة بـ (هوة الواقوصة) وكان مجموع من قتل من الروم ما يقرب من خمسة و ثلاثين ألفاً ونجا الباقون فارين جرحى أو مهيضى الجناح بسبب وقوعهم فى الأودية وتسلقهم من جهات متعددة ، (ملخصاً من كتاب « ميدان معركة اليرموك » للاستاذ محمود شاكر) .

الحلوة ، تلك الذكريات المشرفة للاسلام و المسلمين دائماً حين كان الأعداء يترامون فى وادى الواقوصة و كنا نتقدم والدنيا تتقهقر ، ثم انقلبت الدائرة علينا ووقع ما وقع ، فكدت أغلب على أمرى ، و أخالف تعليمات الأطباء و أرقص و أطرب و أبكى .

هكذا كان أثر اليرموك فى نفوس العلماء الكبار ، فى نفوس الباحثين المؤلفين فى بلاد نائية عن هذه البلاد و عن هذه البقعة المباركة آلافا من الأميال ، و أذكر أنه كان من الأعراف الشائعة و من العادات المنتشرة فى أسرتنا ، أنه إذا وقع هناك حادث مفجع مثل موت بعض أعضاء الأسرة ـ حماكم الله وبارك فى حياتكم و حياة الجميع ـ كان الطريق الوحيد للتسلية ، والتغلب على الأحزان الشخصية و العائلية ، قراءة الملحمة الاسلامية التى نظمها أحد أفراد أسرتنا ، و هو عم والدى رحمه الله تعالى (١) ، فقد نقل كتاب « فتوح الشام » للواقدى إلى الشعر الأردى نظماً ، فتضمنت هذه الملحمة خمسة و عشرين ألف بيت (٢٥٠٠٠) و كله فى حماس إسلامى كأنها نار متأججة من الحماسة الاسلامية و الشعر الاسلامى و الغيرة الاسلامية ، و كنت طفلا صغيراً وكنت أتردد إلى هذه المجالس للسيدات و فيها أمى ، فأرى الدموع تنهمر من العيون

---

(١) و هو السيد عبد الرزاق الحسنى رحمه الله .

و الايمان يتجلى فى وجوههن المشرقة و فى قلوبهن الرقيقة ، وكنت لا أفهم هذا المعنى لأننى فى الرابعة من سنى أو الخامسة أو السادسة. كن يسمعن أخبار الغزاة فى معركة اليرموك و فيهم السيدة خولة بنت الأزور رضى الله تعالى عنها ، كن ينسين حزنهن و كن يشتركن فى هذه المعركة حماساً إسلامياً و إيماناً ، كن يستحضرن فداء المسلمين فى سبيل الايمان ، وفى سبيل الدين ، فكن يستقللن ما أصاب العائلة من حزن و من كآبة.

و أحلف لكم صادقاً أيها الاخوة و الأخوات ، أن لهذه الملحمة فضلا كبيراً فى صمود المسلمين الهنود فى المعارك الدعوية و المعارك الثقافية و الحضارية ، و القومية و الشعبية ، إنما ساعدهم على هذا . . . و على الرباط فى سبيل الله ، و الاحتفاظ بالشخصية الاسلامية ، هو مثل هذه الملاحم التى كانت تقرأ وتنشد فى مناسبات عائلية ، فكان المسلمون و لا يزالون يستمدون منها الايمان العميق والعاطفة الجياشة ، يستمدون الحماس المتأجج ، يستمدون الثقة العميقة الشاملة من هذه الملاحم التى نظمها بعض شعرائنا و حكوا فيها معارك و غزوات خاضها المسلمون و خاضها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بصفة خاصه ، فأنا أستحضر هذه الذكريات ، وأنا واقف أتحدث إليكم أيها الاخوة والأخوات فى هذه القاعة فى جامعة اليرموك .

أريد أن أقول لكم أن فتوح الصحابة و بطولاتهم و حماستهم لم تتجل فى الانتصار فى معركة اليرموك فقط ، و إن كانت معركة فاصلة ، كانت النسبة بعيدة بين عدد المسلمين و بين عدد أعدائهم من الرومان أو أهل الشام ، فيكاد المؤرخون يطبقون على أن عدد المسلمين كان لا يزيد على أربعين ألفا و عدد الرومان قد بلغ مئتى ألف و أربعين ألفاً (٢٤٠٠٠٠) ، إنها حقا انتصار رائع قد ظهرت فيه بطولة سيدنا خالد بن الوليد ، و سيدنا أبى عبيدة بن الجراح و عمرو بن العاص و شرحبيل بن حسنة و يزيد بن أبى سفيان و الضرار بن الأزور ، و السيدة خولة بنت الأزور و غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم ، و لكن عبقرية الصحابة رضى الله عنهم قد تجلت بأروع شكل و فى أجلى مظهر فى المعركة المعنوية التى قامت فى ذلك الحين بين الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبين الحضارة الرومانية و الحضارة الساسانية الايرانية ، الحضارتان اللتان قد ضربتا الرقم القياسى فى الأناقة و فى الرقة و فى الخيال ، واجه الصحابة رضى الله عنهم و هم نشأوا فى صحراء العرب القاحلة الجدبية بشكل عام ، نشأوا نشأة صحراوية فى الأخبية و الخيام وعلى متون الخيل و ظهور الابل ، لم يجرب هذه الحضارة الراقية إلا بعض من دخل بلاد الروم و بلاد فارس ، إنهم نشأوا نشأة

محـــدودة قاصرة ، يلتفون الأرض ، و يقتاتون بلحوم الابـــل ويسكنون فى الخيام أو فى بيوت متواضعة بنيت باللبن ، أنها كانت محنة عظيمة أيها الاخوان ، إنهم لمــا خرجوا من الجزيرة ليبلغوا رسالة الله و ليخرجوا الناس على حد تعبير أحــــدهم و هو سيدنا ربعى بن عامر رضى الله تعالى عنه ؟ « ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، و من ضيق الدنيا إلى سعتها ، و من جور الأديان إلى عدل الاسلام » ، لمـــا خرجوا بهذه الرسالة واجهوا حضارتين معقدتين راقيتين من أرقى الحضارات البشرية التى عرفها التاريخ ، وقد كتب لهاتين الحضارتين عدة قرون لتتقدما فى مضمار الرقى و مضمار الآداب و الشعر و الخيال و الصناعة ، وقد رقت حواشيهما و طالت ذيولهما وبلغتا درجة الخيال كأن الانسان يقرأ « حكايات ألف ايلة و ليلة » كان واحد منهم إذا لبس وانتطق بمنطقة قيمتها دون مأة ألف كان يعير ، كانت تتفاداه العيون و تزدريه ، و كان إذا لبس قلنسوة قيمتها أقل من خمسين ألف أو من مأة ألف درهم بالعملة الفارسية كان يحتقر ، و كـــان لا يستطيع أن يجلس فى جوار أمير من الأمراء ،و تستطيعون أن تعرفوا مــــدى ما وصلت إليه المدنية الفـارسية أن يزدجرد آخر ملوك فارس لما اضطر إلى أن يغادر بلاده فاراً بحياته ، أخذ معه

ألف طاه ، و ألف مغن و ألف مرب للصقور و كان يستقل هذا ، و يقول يا ويلتاه ، يا حسرتا ! أحمل هذه القلة من الطهاة و من المغنين و من مربى الصقور ، كيف أعيش ؟ .

واجه الصحابة رضى الله عنهم هذه الحضارة الراقية الرقيقة الخيالية و هم أبناء الصحراء ، و تستطيعون أن تستحضروا البون البعيد و المسافة الشاسعة بين تجاربهم الحضارية و مدركاتهم الذهنية ، و بين ما بلغت إليه هاتان الحضارتان الراقيتان، بما روى أنهم رأوا خبزاً رقاقاً فى بعض المناسبات والولائم فحسبوها مناديل فأخذوها فى أيديهم فاذا هى أرغفة ، ما كانوا يعرفون أن الخبز يكون فى هذه الدرجة من الرقه و الأناقة ، و لما رأوا الكافور حسبوه ملحاً فاستعملوه فى الطعام فاذا هو شيء لم يجربوه .

إننى لا أقلل من شأن معركة اليرموك أبداً ، و أنا أعيذ سمعى و بصرى و اسانى من أن أستصغر شأن اليرموك ، و لكن المعركة الكبرى هى المعركة الحضارية ، فقد كان الصحابة رضى الله عنهم بدائيين ، و كانوا كأنهم فى طفولة من الحضارة و من المدارك العقلية ، و لكنهم استطاعوا أيها الاخوان أن يحتفظوا بشخصيتهم الاسلامية القوية إزاء هذه الحضارات ، و فى هذه المعارك الدقيقة ، و ما فقدوا شيئاً من عاداتهم الاسلامية العربية

وما ذابوا وما انصحروا فى بوتقة المدنية القوية التى أصهرت عناصر كثيرة ، و لم يحتفظوا بشخصيتهم الأسلامية العربية فحسب بل استطاعوا أن يحتفظوا بمدنيتهم العربية ، وبحضارتهم الاسلامية ، وبقوا على ذلك سبعة قرون إلى أن جاء المغول و التتار ، و ذلك فى القرن السادس الهجرى ، و كانت هنالك المدنية الاسلامية قائمة فى بغداد و فى العراق ، و فى المملكة الاسلامية الممتدة إلى خراسان و تركستان ، و قد خضع التتار للاسلام بعد فترة قصيرة من الزمن للاسلام ، دعوة و عقيدة ، و للحضارة الاسلامية و آدابها و ثقافتها .

أما نحن فقد ابتلينا بالمدنية الغربية مدة ستين سنة أو سبعين سنة أى بعد ما مضت الحرب الأولى و ذلك فى سنة ١٩١٨ م ، نحن ابتلينا بالحضارة الغربية مدة نصف قرن و لكننا لم نستطع أن نحافظ على حضارتنا الاسلامية .

إن علماءنا فى الهند ظلوا يحثون أهل البلاد المسلمين على المحافظة على العادات الاسلامية الأصيلة العربية ، كما جاء ذلك فى وصية حكيم الاسلام الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى من رجال القرن الثالث عشر ، يقول : حافظوا على عاداتكم الاسلامية العربية ، و ظلوا متمسكين بالثقافة العربية شعراً و نثراً ، و صرفاً

و نحواً و بلاغـــة و ظلوا مرتبطين بالجزيرة العربيـــة ، وظلوا متمسكين بحب الرسول ﷺ ، لا تضعفوا فى ذلك ، إن سعادتنـا منوطة باعتزائنا إلى الدين الاسلامى العربى و اعتزائنـا إلى العادات الاسلامية العربية ، و بحبنا الزائد بالمصطفى ﷺ يجب أن لا تنقطع هذه الصلة ليوم من الأيام عن مركز هذا الدين .

قارنوا أيها المستمعون الفارق و البون الشاسع بيننا و بين المسلمين القدامى ، إنهم واجهوا حضارة كانت أرقى من الخيال و واجهوا التنظيم السياسى الادارى الدقيق ، و القضايا المعقدة فى إدارة المدن الكبيرة و فى حماية البلاد ، و فى قيادة الجيوش الجرارة ، و لكنهم بفضل الاعتزاز بالشخصية الاسلامية ، وبفضل الايمان العميق ، و بفضل ثقتهم بتعاليم الاسلام استطـاعوا أن يظلوا محتفظين بشخصيتهم الاسلامية، بل بالشخصية القيادية العالمية ، وقطعوا قروناً على مدار التاريخ الطويل، بقوا متمسكين بالاسلام، لا يعدلون بالاسلام ديناً ، و لا يعدلون بالحضـارة الاسلاميـة حضارة ، ولا يعدلون بالثقافة العربية ثقافة ، و لا يعدلون بالمجتمع الاسلام مجتمعاً ، لم يذوبوا كالملح أبداً فى ماء الحضارات الأجنبية ، هذا درس نستطيع أن نتلقاه من معركة اليرموك ، فكانت المعركة الفكرية ، المعركة الحضارية المعنوية ، أكثر تعقـــدا و أكثر خطراً من معركة اليرموك .

كثير من المؤرخين يستغربون و يشكون فى صحة الحكاية التى
رواها الطبرى فى تاريخه المشهور الموثوق به ، إن المسلمين فى قيادة
سيدنا سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه لما بلغوا إلى نهر دجلة
وأرادوا أن يعبروها ليصلوا إلى المدائن عاصمة الفرس ، وجدوا أن
القناطر قد أزيلت ، و أن السفن قد أبعدت و أن دجلة ترمى بالزبد ،
والعرب على فروسيتهم كانوا بعيدين عن السباحة ، لأن بلادهم ليس
فيها نهر ، فكانوا يحسنون ركوب الخيل ، ولا يحسنون ركوب النهر ،
فضلا عن البحر ، إنهم لما وصلوا إلى الشاطىء وقف سيدنا سعد
بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه هنيهة و استعرض الواقع الجدى
المرير ، نظر إلى سيدنا سلمان الفارسى لأنه ابن البلد وهو فارسى ،
فقال ماذا ترى يا سلمان ؟ هل نعبر و نتوكل على الله ، أم نقف
وننتظر السفن أو نصل بطريق آخر ، فقال سلمان الكلمة الحكيمة
الخالدة التى لا يوجد لها نظير فى تاريخ الديانات ، أنه أسلوب
تفكير جديد ، ومنطق فريد ، ماذا قال ؟ ، إنه قال : يا سعد بن
أبى وقاص إن هذا الدين لجديد ، و أنى لا ستغرب و استبعد أن
يغرق هذا الدين وحملة هذا الدين فى نهر ، إن لله إرادة و إن لله
حكمة فى بقاء هذا الدين حتى يفتح العالم ، فكيف يغرق أهلها الذين
يحملون رسالته فى هذا النهر ، هذا النهر لا يتحول عن فطرته ،

و الدين يتحول عن فطرته ؟ هـذا النهر شغله الإغراق ، و هذا الدين شغله إنقاذ الانسانية من أوحال السفالة ومن أوحال الوحشية ، و من أوحال الوثنية و الشرك ، فكيف أصدق أن هذا النهر يتغلب على هذا الدين مع أن مصير الانسانية مرتبط بهذا الدين ، و ليس مرتبطاً بهذا النهر ، فكيف نسلم أن هذا النهر الصغير الذى يستطيع طفل صغير يعرف السباحة أن يعبره ـ إذا كان هنالك معبر ـ هذا النهر الصغير يتغلب على هذا الدين الكبير الذى جاء به محمد ﷺ ؟ ، والله لا أصدق ، إن هذا الدين لجديد ، وأمامه شغل طويل ، أمامه مسافة طويلة ، مسافات بشرية ومسافات حضارية ، مسافات دينية ، فكيف أصـدق أن سفينة هذا الدين ستغرق فى هذا النهر الصغير ، لا و لكن انظر فى جيشك هل انتشرت فيه الذنوب أم لم تنتشر ، أما إذا انتشرت فيه الذنوب فلا أستطيع أن أقول اننا سننجح واننا سنصل إلى البر والشاطىء الآخر بسلام ، أما إذا كان الجيش محافظاً على سلامته ، على صفاته ، و على جذوة إيمانه ، و على صفاء قلوبه ، و على صفاء صحيفة أعماله ، فاننى بثقة بأننا سنعبر هذا النهر و إن كنا لا نعرف السباحة .

هنالك أمر سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه جيشه ، بسم الله نتوكل على الله و عبروا النهر ، و كانوا يتكلمون فيما بينهم كأنما

يمشون على البر (و هذا لفظ الطبرى) يحكى الطبرى ما قاله الفرس بالنص قالوا « ديوان آمدند ديوان آمدند » جاء العفاريت ، جاء الجن ، هذه قصة يرويها المؤرخ الطبري ، و هو مؤرخ أمين ، و العرب عرفوا بالأمانة فى التاريخ أكثر من كل أمة .

و لكن أغرب من هذا أن المسلمين عبروا دجلة المادية ، عبروا فرات المدنية من غير أن تبتل ذيولهم فيها ، و هذا أروع وأغرب ، و نحن على البر ، لكننا فقدنا الشىء الكثير من مقومات شخصيتنا من مقومات حضارتنا ، ولو لا الخطوط العربية الجميلة على اللافتات والألواح ، و لو لا الأذان المدوى على منائر المساجد ـ حماها الله تعالى وصانها ـ لما استطاع الرجل الذى جاء بالطائرة ونزل بالأسواق أن يفرق بين مدينة عربية و مدينة افرنجية إلا بصعوبة .

فأقول لكم نحن فى معركة حضارية ، ثقافية ، معنوية ، فكرية ، فعلينا أن نصمد أمام هذه الهجمات ، أمام التحديات المعاصرة ، التحديات المدنية ، و التحديات الفكرية ، و المسلمون بقوا سبعة قرون تقريباً ، محافظين على شخصيتهم و على مدنيتهم ، إذا دخل واحد فى بيت مسلم رأى العادات العربية ، البساطة و النظافة ، و التسهيلات للوضوء ، التسهيلات للاستحمام ، التسهيلات للاستنجاء وغير ذلك ، يأكلون بالبساطة جميعاً ، ولكننا نحن تغيرنا فى ظرف

سبعين سنة فقط هذا درس يجب أن نتلقاه و يجب أن نقارن بين حاضرنا و ماضينا ، حاضر هذه الأمة وماضى هذه الأمة .

لا تظنوا أن الحضارة شئ طارىء ، و أن الحضارة أداة فقط ، إن الحضارة تكون نفسية خاصة هى من خصائص أصحاب هذه الحضارة و رواسب تاريخهم الطويل فاذا أخذنا حضارة برمتها و بحذافيرها ، وطبقناها علينا ، كنا عبيداً لهذه الحضارة ، ويبقى الدين منحصراً فى ساعات محدودة يقضيها الانسان فى مسجد ، ما نسبة هذا الوقت الذى نقضيه فى مسجد إلى هذه الحياة التى نعيشها فى البيوت والمنازل و فى الفنادق ؟ ، إن الفنادق التى تبنى فى بلادنا ينبغى أن يشترط معها أن تكون مطابقة للاسلام

لا أشعر إذا دخلت فى بيت مسلم بالعناية الزائدة بالطهارة و بالشعائر الاسلامية ، وتسهيلات لكل شئ ، ولا أشعر أنى أدخل فى بيت أمير من أمراء الخلافة الأموية أو الخلافة العباسية ... ، ولم تكن الخلافة الأموية و الخلافة العباسية فى مؤخر الركب ، إنما كانتا قائدتين للعالم، وكانوا على القمة من الحضارة ... ولكنى لا أشعر مع الأسف الشديد أنى أعيش فى عهد الأمويين و عهد العباسيين ، و لا أقول الخلافة الراشدة فان الخلافة الراشدة ، أسمى من

ذاك . . و لكن على الأقل ، لا أشعر بأننى فى بغداد ، وإنى فى البصرة والكوفة ، بل أشعر بأنى فى بلد أوربى غربى .

إننا نستلهم ونستوحى من سورة الاسراء و المعراج ، و من قصة الاسراء و المعراج ، أن هذه الأمة يجب أن تكون شامة بين الأمم ، أن تكون ذات شخصية ممتازة مميزة ، ذات شخصية قيادية ، نحن الأساتذة و الشعوب كلها تابعة ... أقول لكم بصراحة إن المسلم إذا لم يعتقد أنه هو الموجه للعالم، فانه لم يفهم الاسلام فهماً صحيحاً ... جزى الله الشاعر الاسلامى العالمى الدكتور محمد إقبال ، كان هناك خلاف فى صحة حديث ، « لولاك لما خلقت الأفلاك » ، ولكن الدكتور محمد إقبال يثبت أن أى مسلم إذا لم يعتقد إنه ينطبق عليه هذا الحديث إنما خلقت الأفلاك له وإنما خلقت الأرض له ، فانه مقصر فى أمره ، يجب على كل مسلم أن يعرف أنه القطب الذى يدور حوله الرحى رحى المدينة ورحى البشرية ، ورحى العلوم ، هو بمكان القيادة والزعامة ، ليس مركزنا مركز المقتبسين فقط ... لقول الحديث الشريف : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها » ولكن كما يقول الأمير شكيب أرسلان فى تعبيره البليغ : « من استرق شيئاً وقد استرقه فقد استحقه . » فاذا كنا مقتبسين فيجب علينا أن نكون مسترقين حتى نكون مستحقين ، من استرق شيئاً أى

جعله خاضعاً لنفسه و أخضعه لمقومات حياته ، أخضعه لشخصيته وكيفه من حيث انه مسلم فليس يسارق ... بل هو يسترق .

أصبنا نحن الأمة الاسلامية و المسلمين بمركب النقص ، إن المسيحيين يغارون على شعاراتهم ، ولكن نحن المسلمين لا نغار على شعاراتنا ، يجب أن تكون الفنادق فى البلد العربى الاسلامى خاضعة لحضارة هذه البيئة ، ولتاريخ هذه البيئة ولعقائد هذه البيئة .

يجب أن نصوغ الحضارة من جديد ، نصوغها صياغة إسلامية جديدة تختلف عن الحضارات الأخرى ، هذا يحتاج إلى الاستقلال الفكرى ، والاستقلال التخطيطى والاستقلال الشخصى ، ولكنا نحن فقدنا الاستقلال ، الاستقلال العقلى ، والاستقلال الفكرى ، والاستقلال الحضارى ، كثير من البلاد قد تحررت من الاستعمار الأوربى سياسياً و إدارياً ، و لكن ما تحررت عقلياً و ثقافياً ، و لا يزال الغرب جاثما على رؤوسنا متغلغلا فى صدورنا ، يبيض ويفرخ ، يجب أن نتحرر منه كلياً و نكون أمة حرة بكل معانى الكلمة .

فهرس المحتويات